

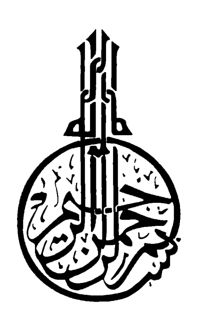
حياة السيدة خديجة بنت خويلد عليها السلام

الشيخ

ماجد ناصر الزبيدي

دار المحجة البيضاء

دار الرسول الأكرم (ص)




مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

سيرة السيدة

خديجة بنت خويلد (عليها السلام)

الشيخ: ماجد ناصر الزبيدي

دار المحجة البيضاء

دار الرسول الأكرم (ص)

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

الإهداء

إلى أعز امرأة بالوجود....

إلى كل مجاهدة ضحت بنفسها من أجل أعلاه كلمة، لا إله إلا الله محمد رسول الله، علي ولي الله ...

إلى من صبرت... وإلى من وضعت أول أساس في الإسلام...

إلى أم المؤمنين ... السيدة خديجة بنت خويلد(عليها السلام)..

إلى زوجتي العزيزة فاطمة الفوعاني...

أهدي هذا جهدي المتواضع سائلين الله عزّ وجلّ أن يسدّدنا إلى الصواب

الشيخ ماجد ناصر

الزبيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين...

أما بعد فإن الكلام بشأن السيدة العظيمة خديجة بنت خويلد بوريقات معدودة لا يفي بالغرض المطلوب ولا يمكننا حصر فضائلها في ذلك، فهذه السيدة التي عاشت حياة الترف والنعيم تراها تنسى جميع ذلك وتعيش في شعب أبي طالب وقبل ذلك تجاهد وتناضل مع زوجها(ص) بكل ما لديها من مال ونفس، فهي تُعتبر أهم الدعامات الأساسية التي كان يعتمد عليها رسول الله(ص)، فهي رفعت من اقتصاد الأمة الإسلامية في تلك الفترة الشديدة، ولولاها لنفروا أكثرهم من الجوع بالإضافة إلى الخوف لأنه بدون الخبز لا يعبد الله، لكنها لم تكتفِ بذلك بل أصبحت أهم مبلغة مع زوجها لانشار الإسلام ومناصرة الرسول الأكرم(ص).

لكن ربما يكون هنالك سؤال يطرح نفسه وهو لماذا خديجة...

أقول لأنها كانت ملكة الحجاز من حيث المال والحسب والنسب والسمعة التي بنتها لنفسها، فهي الطاهرة وسيدة نساء قريش وغير ذلك من الألقاب التي تتمناها كل امرأة في الماضي والحاضر والمستقبل...

وبعد ذلك قامت خديجة بنت خويلد بتفجير ثورة تعتبر أهم ثورة في عصر الجاهلية الثورة التي أعطت وقدمت للمرأة حريّتها - في اختيار شريك حياتها بدون إكراه - التي كانت محرومة منها والتاريخ شاهد على ذلك فمن يريد الاطلاع فليراجع كتابنا قصص الصحابيات في القرآن.. أليست هي صاحبة القلب الجريء الذي قام باختيار الزوج العظيم والاعتراف بلسانها له بحبها الطاهر.. لكنها لم تسلم من ذوات العقول الناقصة فتعرضت للجفاء والسخرية وربما للحسد لدقة اختيارها أو لحظها العظيم، فهي اختارت أفضل وأحسن مخلوق على وجه الأرض. أرجع وأقول لا يمكننا أن نجمع كل ما دار وما صار بشأن خديجة بنت خويلد. وأود أن أذكر بأن خديجة لم تسلم من اغتيال تاريخها المشرف فاتهموها بتهم هي بعيدة عنها وسوف نذكر ذلك إن شاء الله بالتفصيل.

لكنها يكفيها فخراً بأن الجليل يسلم عليها ويكفيها فخراً بأن زوجها

حبيب الله ولم يتزوج عليها طول مدة حياتها معه وهي خمسة وعشرون عاماً.

ويكفيها فخراً بأنها تعتبر الدعامة الأساسية في الإسلام، ويكفيها فخراً بأنها أم لسيدة نساء العالمين وهي الطاهرة المطهرة الزكية الميمونة فاطمة الزهراء(ع) أم الحسن والحسين والأئمة أجمعين(عليهم السلام).

ويكفيها فخراً بأن لها بيتاً في الجنة كما أخبر بذلك جبرائيل(ع).
بعد هذا البيان المختصر الذي لا يفي من الغرض شيئاً، تجرأت ومسكت قلمي معتذراً من سيدتي ومولاتي خديجة بنت خويلد لتقصيري اتجاهها في هذا الكتاب المتواضع الذي يحتوي على ستة فصول بدراسة وتحليل عن سيرة تلك البطلة العظيمة.

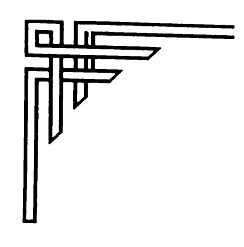
ففي الفصل الأول حاولت أن أذكر الحياة في الجاهلية وعبادتهم والقساوة التي كانت تملأ قلوبهم وبعد ذلك انتقلت إلى الفصل الثاني ذاكراً بعض الافتراءات التي تُنشر على أم المؤمنين ومناقشتها بصورة مبسطة والرد عليها، ثم انتقلت إلى أهم حادثة في حياتها وهي لقاءها بالرسول الأكرم(ص)، ومن ثُم ذكرتُ زواجها المبارك التي فرحت به ملائكة السماء والأرض وبعد ذلك ذكرت سيرتها مع النبي وولادة الطاهرة الميمونة فاطمة الزهراء(ع) وعام الحزن الذي فقد فيه

النبي(ص) أهم دعامتين كان مستند عليهما وهما السلطة المتمثلة بشيخ الأباطح أبي طالب(ع) ودعامة المال المتمثلة بالزوجة الحنونة خديجة بنت خويلد(ع)، وأخيراً ذكرت بعض الأحاديث والفضائل التي تتعلق بها، سائلين العلي القدير أن يسدّدنا للصواب والتوفيق والحمدُ لله ربِّ العالمين..

الشيخ ماجد ناصر الزبيدي

٢٨ ذو الحجة ١٤٢٤هـ

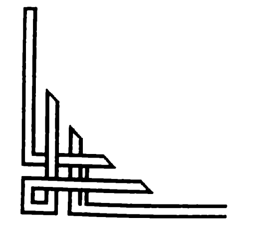
بيروت / حارة حريك

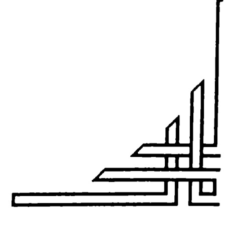


الفصل الأول

خديجة بنت خويلد

في مدينة الأوثان





قبل الدخول في سيرة خديجة رضوان الله عليها يجب أن نعرف ولو باختصار طبيعة المجتمع وظروفه الذي كانت تعيش فيه تلك السيدة الفاضلة الطاهرة...

الحياة في مدينة الأوثان

كانت خديجة تعيش في مكة القبلية التي لا تعرف سوى التعصب وسفك الدماء، وتسودها عدد محصور من القبائل التي أبطرتها الغنى وأفسدها الرخاء ومال بها الطيش إلى سفه ومجون وتشدّق ووقوع في أقوات الناس وأعراضهم.

كانوا أهلها يعبدون أصناماً لا تضر ولا تنفع ما هي إلا وثنية مظلمة وعادات رثة وأنظمة بالية.

كان الظلم سائداً فمن يقف في وجههم - من حليف أو عبيد - تشب عليه الجبابرة حتى يوشكوا أن يبدِّلوا أمن (البيت) خوفاً، ويعيدوا بشاشة الحياة عبوساً، ويردُّوا رخاء العيش شدَّة، فهؤلاء السفهاء من أُميَّة وسهم وعدي لا تكفيهم أفياؤهم ومرابحهم، ولا تسد شهواتهم القيان ومن استزلهنَّ الشَّيطان من نساء الحاضرة، حتى يسطوا بتجارة

الغرباء، ويغلبوا الزائرين على بناتهم، فيبلغوا حاجتهم من الأموال والأعراض بغزو أبشع من غزو البادية، وأشنع وأشد استهتاراً.

وهذا أحد أخيار الصحابة عمار بن ياسر يصفهم لأبيه ويقول:

«ويح هؤلاء السُّفهاء ألا يتَّقون شرَّ هذه البدع المنكرة في قدس بلدهم الَّذي به يحيون، إن لم يتقوها في زكاة أنفسهم، وتقوى ضمائرهم؟، ألا ينظرون إذا تسامع بشأنهم الناس من حجاج (البيت) ومصرٌ في التجارة، أن يخلعوهم من (البيت) ويزيلوهم من الحكم؟، أو يقاطعوهم إذا لم يستطيعوا إلى خلعهم وإزالتهم سبيلاً، فيميتوهم فقراً ومذلة وهواناً؟، ما رأيت طيشاً كطيش هؤلاء السُّفهاء! ولا يُرى طيش كطيشهم يفسد على صاحبه آلَة العيش بَله عفَّة النفس وراحة الضَّمير!»[١].

فكان العبيد والأحلاف يشوكهم ذلك لكن الخوف من العذاب والظلم مالي قلوبهم فإن علم أحد بذلك لأثار عليهم شراً لا يقدرون على دفعه ولا يقوون على تحمّله، فكانوا يعيشون على سفك الدماء وبيع الإماء والآله ونهب المسافر والتاجر ولو كان بالنصب والغصب علناً أو سرّاً كما فعل العاص بن وائل مع الزبيدي في قصته المشهورة، فقد رُوي أن رجلاً من (زبيد) أقبل الحاضرة ببضاعة ثمينة ابتاعها منه العاص بن وائل السهمي، فأداها إلى بيته ولم يدفع ثمنها لأخي زبيد، ثم غيّب وجهه

---

(١) عمار بن ياسر حليف مخزوم لصدر الدين شرف الدين.

ويطلبه الزبيدي فيعجزه الطَّلب، ويبتغي متاعه فيمتنع عليه المتاع، ويلتمس بني سهم يشكو إليهم أخاهم فلا يجد وجوهاً، بل يجد أقفية، ويبلي في طلب حقه بلاء حسناً فيطوف على أندية قريش من ضهراء (سهم) فلا يجد غير اغتصاب على الاغتصاب، وغير ممالأة على الغزو والمجرم، وغير عفو من الجميع عن العاص يشتري منه عفواً عن مثلها يأتيها حرب بن أُميّة، وأُبيَّ بن خلف وغيرهما من فتَّاك مكة ومصابتها وانتهى آخر الأمر إلى أبي قبيس يشكو أمره إلى قريش مجتمعة بعد أن شكا إلى أكثرها متفرِّقة راجياً أن يكون لشكواه المعلنة شأن وتأثير ويرسله صوتاً يهوي من العلياء كما ينزل الصَّوت من السَّماء قائلاً:

يا للرِّجال لِمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائي الحي والنفر
ومحرم أشعث لم تقض عمرته
يا أهل (فهر) وبين الحجر والحجر

هل منصف من بني (سهم) فمُرْتَجَعٌ ما غيبوا؟ أم ضلال مال معتمر

.... إلى آخر القصة.

هكذا كانوا مع زوارهم، فكيف مع عبيدهم وإماءهم، فكانت سياستهم سياسة إنسان لحيوان لا يفهمون شيئاً غير العنف والظلم

وسفك الدماء، كأنهم ليس ببشر مثلهم لهم رؤوس فيها أعين وآذان وأناف وألسنة وفيها عقول تعرف الكرامة كمعرفة عقولهم لهذه الكرامة. فكانوا - العبيد - يظهرون لهم الطاعة باطنها العصيان، ويضمرون لهم معصية ظاهرها المداراة.. هكذا كان دأب المستضعفين معهم.

أما ألهتهم، إنَّها تلك الوثنيَّة، لم تكُنْ قطعاً تغنى أيَّ غنّى، بدُنيوات كالتي تُعهدُ في غيرها، بدُنيواتٍ مشبُوبةٍ على كُلِّ نحو... فهي للحُبِّ إن أردْت الحُبَّ، وهي للجمال ساعة تُريدُ الجمال، وهي للرّغبات كيْف شئت، وهي فوق هذا، دانيةٌ حتَّى لتُخالِطُ في امتزاجٍ، وقريبةٌ حتّى لتتحرَّكُ بإرادة الشَّهوةِ المُخامرة...

وكان لتلك الوثنيَّة في نفس العرب حظٌّ هذا الهشيم، ليستْ تندفعُ فيها اندفاعها إلا بمقدارٍ، فظلَّتْ «شحاذة عقيدةٍ» مثلما هو الهشيم، شحاذة نباتٍ.

وماذا تحسبُ وراء هذا، وأنت تجدُ من كرامة محلِّها وقداسة منزلها من الوجدان، ما تُطالعُك به رواية تُشهدُك رجلاً منهُم، يضربُ بصلفٍ وكبرياء رأس صنمه، بفداحةٍ، حين خرجتْ على غير ما يرغب ويهوى.. وأُخرى تُشهدُك آخر، يأكُلُ في رغبة معدته رغبة مُعتقدهِ... إلى روايات لا تُحصى، وكُلَّها تضعُ تلك الوثنيّة موضع القلق، وتُقدِّمها في نسيج خلقٍ

ثُمَّ تنعطفُ لتُريك مكان البرم بها، في غير حدٍّ من نفوس القومِ، ومكان الضِّيق بأشيائها في ازورارٍ وتجهُّم.

وفي النهاية تُخرجُ لنا تلك الروايات، عربيَّ الجاهلية ذلك البعيد، إنساناً لا قداسة لشيءٍ فوق ذاته، ونعني: الذّات في نطاق الجسد وما يرشحُ به من إملاءات، فيها من عمل الأعصاب، وفيها من تحيُّز الشعور بالوجود.

فقد رأينا عند امرئ القيس أيّة قداسةٍ هي قداستُهُ لوثنه، تلك التي ذابت في وهج أوار الانتقام وتحت حرارة الرَّغبة الحاقدة.

ومثلهُ رأينا عند عمر بن الخطاب، يوم أكل صنم التَّمر في غير مُبالاة بقداسةٍ، ولا اكتراث بمثاليّةٍ، كبيرُ أمرِها عندهُ، أنَّها كورقة الخريف ذاويةٌ شمطاءُ..[1]

فمن تلك الوثنية المشهورة عندهم ولها عظمة بين الوثنيات الأخرى هُبل، هذا الذي اشتراه عمرو بن لحي سيّد خزاعة الذي انتزع الحكم من جرهم، وتولّى (البيت) وأقبل بهُبل من الشام، ثم أشاع عبادة الأصنام يُجهِّل بها العامة استدامة للملك وكان جبّاراً خليعاً مستهتراً عمَّر طويلاً وطمس خلال حكمه (حنفية) إبراهيم(ع)، وأفضى الحكم بعده إلى قصي. وهُبل كبير الأصنام في الكعبة صيغ من العقيق على

---

(١) مثلهُن الأعلى السيدة خديجة، الشيخ عبد الله العلايلي.

هيئة شيخ ضخم وقور طويل اللحية قطعت يمينه فعوضته عنها قريش بيد من ذهب.

حتى أن أبا جهلٍ أخذ يؤدِّب أحد عبيده مره فبرّح به، فحلف العبد بهُبل إنّه لبرئ، ويحيل سيِّده إلى هُبل بالسؤال عن براءته. فقال له أبو جهل:وما هو هُبل يا لُكع! هل هو إلاَّ عبد أقطع منحوس مثلك، اشتراه عمرو بن لحي سيد خزاعة من بلقاء الشام ونصبه عليك وعلى أمثالك إلهاً؟.

وأدَّب عبداً مرّة، فذكر له العبد (إسافاً ونائلة)[1]- وهما إلهي النَّحر والأضحيات - فقال له: صه يا ابن اللخناء! هل كانا إلا زانيين من جرهم مُسخا حجرين، ويلك أتريد أن تدسَّ عقلك في رأسي؟ وتأخذني بقدس ما أصنع ويصنعه أمثالي؟ ألا فلتعلم أنّ هذه الآلهة إنما هي من إمائنا البلهوات، وضعناها فوقكم لتعلموا مكانهم منا، فأنت لست عبدي فقط بل عبد لآمتي، ونظام هذه الإماء من آلهتك عبد لي كعبوديَّتك، فإذا تمرَّد سطته كما أسوطك حتى يستقيم لي، إنّما نشترعه لنؤدبكم به، فإذا استقام لكم علينا فقد أبق، وحلَّ لنا أن نُمزِّقه كما نمزِّق ظهوركم! انصرف فإذا عدت إلى ذكر شيء من هذا بوجهي لا تعرف كيف تخرج روحك الخبيثة من بدنك.

---

(١) تزعم الميثولوجيا أنّ (إسافاً ونائلة) كانا رجلاً وامرأة من جرهم فجرا بالبيت في عهد عمرو بن لحي فمسخا حجرين.

أما عبادتهم فكان ناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة، حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة وعلى فرجها خرقه، فتعلق على سفلاها سيوراً مثل هذه السيور التي تكون على وجوه الحمر من الذباب وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله
وما بدا منه فلا أحله

وكان إذا ضاق عليهم المعاش خرجوا من مكة وتفرقوا، فكان الرجل إذا رأى شجرة حسنة أو حجراً حسناً، هويه فعبده، وكانوا ينحرون لها النعم، ويلطخونها بالدم، ويسمونها سُعْد صَخرة، وكانوا إذا أصابهم داء في أبلهم وأغنامهم، جاءوا إلى الصخرة، فيمسحون بها الغنم والإبل.

وبلغ استهزائهم بآلهتهم أشد سخرية، فقيل إن رجل من العرب جاء بإبل له، يريد أن يتمسح بالصخرة لإبله ويبارك عليها، فنفرت إبله وتفرقت، فقال الرجل شعراً:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
فشتتنا سعد فما نحن من سعدِ
وما سعد إلا صخرة بتنوفة
من الأرض لا تهدي لغي ولا رشدِ

ومرّ به رجل من العرب، والثعلب يبول عليه فقال شعراً:

وربّ يبول الثُعلُبان برأسه

لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وغير ذلك كثير من سخريتهم لآلهتهم التي وضعوها وظلمهم لعبيدهم وإمائهم والمستضعفين الذين لا حول ولا قوة لهم، فهم يُهدُوا لمن يشاءوا ويقتلون من يشاءوا...

أما الموضوع المهم هو تعاملهم مع النساء... فحياة النساء في ذلك المكان كحياة الحيوانات بالنسبة إلى الرجل، فكما أنّ للرجل حقّاً في امتلاك الحيوانات والاستفادة من لحمها وشعرها وصوفها وحليبها، والركوب عليها وحمل الأثقال من مكان إلى آخر، وغيرها من التصرّفات المشروعة، بل حتى غير المشروعة من قتل وإيذاء. كذلك كانت المرأة عندهم، كانت حياتها تبعيّة لحياة الرجل، وأنها لم تُخلق لذاتها بل خلقت لأجل الرجل، ووجودها فرع لوجود الرجل، ومكانتها مكانة الطفيلي بالنسبة للرجل، وليس لها من حقوق إلاّ ما رآه الرجل حقّاً له أوّلاً.

فكان لوليّها - الأب أو الزوج - أن يبيعها، أو يهبها، أو يقرضها للخدمة أو الفراش أو الإستيلاد، أو لأيّ غرض من أغراض الإقراض. بل كان له أن يسوسها حتى بالقتل، أو يتركها حتى تموت، أو يذبحها ويأكل لحمها في المجاعات وفي مقابل هذا كلّه ما كان على المرأة إلا أن تطيع الرجل وتنفّذ أوامره، فهي تقوم بأمر البيت وتربية الأولاد، وكل ما

يحتاجه الرجل. بل كانت تقوم بأعمال شاقّة فوق قدرتها وطاقتها، فهي تحمل الأثقال، وتعمل الطين وغيرها من الحرف والصناعات... أي إنها معدومة التفكير وإن كان لديها فهو ممنوع، هذا بالنسبة لجميع الأمم غير المتمدنة بل وبعض الأمم المتمدّنة أيضاً، ومكة من المدن أو الأمم غير المتمدنة وأكثر من ذلك، فكان عرب الجاهلية يسكنون في شبه الجزيرة العربية، وهي منطقة جافة حارّة جدبة الأرض، معظمهم قبائل بدويّة بعيدة عن الحضارة والمدينة، يعيشون بشنِ الغارات والسلب والنهب، كما ذكرنا سلفاً... ويتّصلون بإيران من جانب، وبالروم من جانب، وببلاد الحبشة من جانب آخر.

إذاً فحياتهم حياة قساوة وتوحّش فرضتها البيئة عليهم، لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم، وربما تجد عندهم بعض العادات الهنديّة والمصرية والروميّة والإيرانيّة.

وبصورة أكثر وضوحاً من ذلك، لم يكن العرب ينظرون إلى المرآة نظرة تقدير واحترام، ولم يعطوها درجة من الكرامة، فهي فاقدة الاستقلال في حياتها، تابعة لأبيها أو لزوجها، لا يحق لها التصرّف بأي شيء إلاّ بموافقة وليّها، ولا تملك شيئاً ولا ترث - حتى لو كان من نتاج عملها - بل هي وما تملك لوليها. وليس لها المطالبة بأي شيء، لأنّها لا تذود عن الحِمى في الحرب. وزواجها يرجع إلى أمر وليّها، وليس لها حق الاعتراض ولا المشورة.

ويحقّ للولد أن يمنع أرملة أبيه من الزواج، بأن يضع عليها ثوبه ويرثها كما ورث أبيه، ويحقّ له أن يتزوّجها بغير مهر، أو يزوّجها لمن يشاء ويأخذ مهرها. وبقيت هذه العادة سائدة عندهم حتى بُعث النبي(ص)، وحرّم الله هذا الزواج، حيث إنّ كبشة بنت معن بن عاصم امرأة أبي قيس بن الأسلت انطلقت إلى الرسول(ص) وقالت له: إنّ أبا قيس قد هلك، وإنّ ابنه من خيار الحمى قد خطبني، فسكت رسول الله(ص)، ثم نزلت الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1]، فهي أوّل امرأة حرمت على ابن زوجها.

وروي عن ابن عباس أنّه قال:

إذا مات الرجل وترك جارية، ألقى عليها حميمه ثوبه فيمنعها من الناس، فإن كانت جميلة تزوّجها، وإن كانت قبيحة حبسها حتى تموت، وظلّ هذا شأنهم إلى أن نزل الوحي بتحريم ذلك: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[2].

وكان العربي في الجاهلية يغتم ويضيق صدره إذا ولدت زوجته بنتاً، بينما كان يفرح ويستبشر إذا جاءه ولد، وأشار الله سبحانه إلى هذه الظاهرة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[3].

---

(١) سورة النساء، آية: ٢١.

(٢) تفسير الطبري، ٤: ٢٠٧.

(٣) سورة النحل، آية: ٥٨.

كانوا يعاملونها معاملة حقيرة حتى أنّهم جعلوا صفة الضعف والصغار والهوان ملازمة لها، واستعملوا كلمة المرأة في الاستعارة والكناية والتشبيه، بها يقرّع الجبان، ويؤنب الضعيف، ويلام المخذول المستهان والمستذل المتظلم.

قال الشاعر زهير بن أبي سلمى يهجو حِصن بن حذيفة الفزاري:

وما أدري وليتَ إخال أدري

أقومٌ آل حصنٍ أم نساء[1]

وقد أكثر الشعراء في وصف حالهم وحال المرأة في ذلك العهد، وعجزها عن العمل والمقاومة، في حين أن البنين أقوى منهنّ، ويتاح لهم ما لا يتاح لهنّ.

قال أحدهم:

وزادني رغبة في العيش معرفتي

ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

أخشى فظاظة عمٍ أو جفاء أخٍ

وكنتُ أبكي عليها من أذى الكَلم

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً

والموت أكرم نزّال على الحرم

إذا تذكّرت بنتي حين تندبني
فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدم

ولعل أبرز مظاهر ظلم المرأة في الجاهلية هي مسألة وأد البنات، تلك العادة القبيحة اللاإنسانية التي كانت واسعة الانتشار في تلك الأيام في الجزيرة العربية عند أهل البادية في الصحراء وفي بعض المدن المتحضّرة.

ويختلف سبب الوأد عند القبائل، فمنهم من يئد البنات غيرة على العرض ومخافة من لحوق العار، لأنهم أهل سطو وغزو، وكانت الذراري تساق مع الغنائم، ويؤخذ السبي فتكون بناتهم عند الأعداء، وهذا منتهى الذل والعار.

قال أحد شعرائهم:

القبر أخفى سترةٍ للبنات
ودفنها يروى من المكرمات

وكانت بنو تميم وكندة من أشهر القبائل تئد البنات خوفاً، لمزيد الغيرة. ومنهم من يئد البنات لا لغيرة أو خوف من عار، بل إذا كانت مشوهة أوبها عاهة، مثلاً إذا كانت زرقاء أو سوداء أو برشاء أو كساح، ويمسكون من البنات من كانت على غير تلك الصفات لكن مع ذلّ وعلى كره منهم.

وكثيراً منهم يئد البنات من الجوع أو خوف الفقر والفاقة، لأنّ العرب يعيشون في أرض قاحلة لا كلأ فيها ولا ماء، فتمرّ عليهم سنون شديدة قاسية، فيضطرون لأكل العلهز، وهو الوبر بالدم، وذلك من شدّة الجوع، وإلى هذا أشار تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[1].

وقال عزّ وجلّ:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾[3].

وأوّل من وأد بنته هو قيس بن عاصم، في قصة معروفة يرويها لنا التأريخ، وهي أنّ بني تميم منعوا الملك النعمان ضريبة الأتاوة التي كانت عليهم، فجرّد عليهم النعمان أخاه الريان مع إحدى كتائبه، وكان أكثر رجالها من بني بكر بن وائل، فاستاق النعمان سبي ذراريهم، فوفدت

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٤٠.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٣١.

وفود بني تميم على النعمان بن المنذر وكلموه في الذراري، فحكم النعمان بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء، فآية امرأة اختارت زوجها ردّت إليه، فشكروا له هذا الصنيع. وكانت من بين النساء بنت قيس بن عاصم، فاختارت سابيها على زوجها، فغضب قيس بن عاصم ونذر أن يدسّ كل بنت تولد في التراب، فوأد بضع عشرة بنتاً.

وقيل: إنّ أوّل قبيلة وأدت من العرب هي قبيلة ربيعة، وذلك على ما يروى أنّ قوماً من الأعراب أغاروا على قبيلة ربيعة وسبوا بنتاً لأمير لهم، فاستردّها بعد الصلح وبعد أن خيّروها بين أن ترجع إلى أبيها أو تبقى عند مَن هي عنده من الأعداء فاختارت سابيها وأثرته على أبيها، عند ذلك غضب الأمير وسنّ لقومه قانون الوأد، ففعلوا غيرة منهم وخوفاً من تكرار هذه الحادثة.

ومن خلال هذه القصة التي سنذكرها، يتّضح لنا مدى فظاعة هذا العمل وشناعته، وقساوة قلوب القائمين به وخلّوها من الرحمة والرأفة والشفقة:

روي أنّ رجلاً من أصحاب النبي(ص) كان مغتماً بين يدي رسول الله(ص)، فقال له رسول الله(ص): «مالك تكون محزوناً؟».

فقال: يا رسول الله، إني أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخاف ألاّ يغفره الله لي وإن أسلمت.

فقال له: أخبرني عن ذنبك؟.

فقال: يا رسول الله، إنّي كنتُ من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت، فتشفّعت إليّ امرأتي أن أتركها، فتركتها حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء، فخطبوها فدخلتني الحميّة، ولم يحتمل قلبي أن أزوّجها، أو أتركها في البيت بغير زواج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي، فسرَّت بذلك وزيّنتها بالثياب والحلي، وأخذت علي المواثيق بألاّ أخونها.

فذهبتُ إلى رأس بئر فنظرتُ في البئر، ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر، فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول: يا أبت ماذا تريد أن تفعل بي؟، فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحمية، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضيع أمانة أمي، فجعلت مرة أنظر في البئر ومرة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة، وهي تنادي في البئر: يا أبت قتلتني، ومكثت هناك حتى انقطع صوتها، فرجعت.

فبكى رسول الله(ص) وأصحابه، وقال: «لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك».

وفي بعض كتب التأريخ أنّ العرب كانوا يحفرون حفرة، فإذا ولدت الحامل بنتاً ولم يشأ أهلها الاحتفاظ بها رموها في تلك الحفرة، أو أنهم

كانوا يقولون للأم بأن تهيئ ابنتها للوأد وذلك بتطيبها وتزينها، فإذا زيّنت وطيّبت أخذها أبوها إلى حفرة يكون قد احتفرها فيدفعها ويهيل عليها التراب حتى تستوي الحفرة في الأرض.

ربما يسأل سائل ما الغاية من جميع ذلك؟، فيكون الجواب هو:

إن السيدة خديجة(رضوان الله عليها) كانت في تلك المجتمعات التي لا تعرف الرحمة والشفقة بل عاشت على القسوة وشرب دماء المستضعفين وأكل لحومهم..

والد ووالدة خديجة

سوف نؤجل الكلام في فصل آخر عن تاريخ ولادة السيدة خديجة، أما الكلام عن خويلد وزوجته يطول الحديث عنه لكننا سوف نذكر مختصر عن ذلك...

لقد ولدت خديجة بنت خويلد من أبوين قرشيين، فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان.

وسيأتي بعد ذلك إن شاء الله بحث مفصل في نسبها.

يلتقي نسبها مع رسول الله(ص) بـ (قصي)، أي إن خديجة من نسل الأنبياء والأوصياء الحاملة لشريعة الله تعالى.

وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن الهرم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، وأمّها هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤيّ، وأمّها العرقة وهي قلابة بنت سُعَيد بن سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي، وأمّها عاتكة بنت عبد العُزّى بن قصيّ بن كلاب بن

مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب، وأمّها الخُطيّا وهي رَيطة بنت كعب بن سعد بن تميم بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب، وأمّها نائلة بنت حُذافة بن جُمَح بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر بن مالك[1].

وبذلك كما يدعي الإخباريون تكون خديجة قد ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية، وقد اجتمع لها بالإضافة إلى هذا النسب الرفيع الذكر الطيب والخلق الكريم والصفات الفاضلة وبلغ من علو شأنها إنها كانت قبل أن تتزوج بالنبي(ص) تعرف بالطاهرة وبسيدة نساء قريش وهي مع ذلك من أثرياء قريش وأوسعهم جاهاً ومفطورة على التدين بعامل الوراثة والتربية، وكان أبوها ذا شرف في قومه.

وهو الذي نازع (تبعا الآخر) حين أراد أن يحمل الحجر الأسود معه إلى اليمن فتصدى له خويلد وقام معه جماعة من قريش، ولم ترهبه قوته وكثرة أنصاره حرصاً منه على هذا النسك من مناسك دينه، ثم رأى تبَّع في منامه ما روعه، فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه[2].

وكان خويلد بن أسد، رجل من أشراف قريش، ومن كبار رجالها بل

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر لهاشم معروف الحسني، ج١، ص٤٦.

(٢) السيرة النبوية، لابن كثير، ج١، ص٢٦٧.

من وجهائها المعروفين، وقد استشهد المؤرخون على مكانته ووجاهته بأنه كان في الوفد الذي أرسلته قريش إلى اليمن ليهنئ ملكها العربي سيف بن ذي يزن، عندما قام بإخراج الأحباش وطردهم من بلاده وبلاد العرب في اليمن وانتصر عليهم، وكان ذلك بعد عام الفيل بعامين، وقد تكوّن وفد قريش من: عبد المطلب بن هاشم جد النبي(ص)، وأميّة بن عبد شمس، وخويلد بن أسد والد خديجة في عدد من وجوه قريش من أهل مكة، فأتوه بصنعاء في قصر له يقال له غمدان[1].

---

(١) أخبار مكة للأزرقي، ج١، ص١٤٩.

حرب الفجار[1]

قال ابن هشام: فلما بلغ رسولُ الله(ص) أربع عشرة سنة أن خمسَ عشرةَ سنة، فيما حدثني أبو عُبيدة النحويّ، عن أبي عمر بن العلاء، هاجت حربُ الفِجَار بين قُريش، ومن معهم من كنانة، وبين قيس عيلان، وكان الذي هاجها أنَّ عَروة الرَّحَّال بن عُتبة بن جعفر بن كِلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن مُعاوية بن بكْر بن هوازن، أجار لطيمة[2] للنعمان بن المُنذر[3]، فقال له البرّاض بن قيْس، أحد بني ضمرة بن عبد مناة بن كنانة: أتُجيرها على كِنانة؟.

قال: نعم، وعلى الخلق (كله). فخرج فيها عُروة الرَّحَّال وخرج

---

(١) الفجار (بالكسر): بمعنى المفاجرة، كالقتال والمقاتلة، وذلك أنه كان قتالاً في الشهر الحرام ففجروا فيه جميعاً، فسمي الفجار.

وكان للعرب فجارات أربعة، آخرها فجار البراض هذا. وأما الفجار الأول فكان بين كنانة وهوازن، وكان الذي هاجه أن بدر بن معشر. أحد بني عقال بن مليك من كنانة، جعل له مجلساً بسوق عكاظ، وكان حدثاً منيعاً في نفسه، ثم كان أن افتخر في السوق وتصدى له الأحيمر بن مازن أحد بني دهمان، ثم تحاور الخيان عند ذلك حتى كاد أن تكون بينهما الدماء، ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير.

وكان الفجار الثاني بين قريش وهوازن، وكان الذي هاجه فتية من قريش تعرضوا لامرأة من بني عامر بن صعصعة، فهاجت الحرب، وكان بينهم قتال ودماء يسيرة، فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم.

وكان الفجار الثالث بين كنانة وهوازن، وكان الذي هاجه أن رجلاً من بين كنانة كان عليه دينٌ لرجَلٍ من بني نصر، فأعدم الكناني، فعير النصراني ذلك قومه بسوق عكاظ، فقام إليه كناني فضربه، ثم تهايج الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال، ثم تراجعوا. (الأغاني، ج١٩، ص٨٠).

(٢) اللطيمة: الجمال التي تحمل التجارة، والطيب والنبر وأشباههما.

(٣) وذلك أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث بسوق عكاظ في كل عام لطيمة في جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها له حتى تباع هناك، ويشتري له بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه (العقد الفريد، ج١٩، ص٧٥).

البّراض يطّلب غفلته، حتى إذا كان بتيْمن[١] ذي طِلالة بالعالية، غفل عُروة، فوثب عليه البرَّاض فقتله في الشهر[٢] الحرام، فلذلك سُمّي الفِجار. وقال البراض[٣] في ذلك:

وداهيةٍ تُهمُّ النَّاس قبْلي
شددتُ لها بني بكر ضلوعي
هدمت بها بيوت بني كلاب
وأرضعْتُ الموالي بالضُّرُوع[٤]
رفعتُ له بذي طلأَل كفِّي
فخر يميدُ كالجذع الصَّرِيع

وقال لَبيد بن رَبيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب.

---

(١) تيمن ذو طلال: واد إلى جانب فدك، في قول بعضهم، والصحيح أنه بعالية نجد، كما ذكر هنا (راجع: معجم البلدان).

(٢) ويقال إنما كان ذلك وعروة إلى جانب فدك، إلى أرض يقال لها أوراة قريبة من تيمن، يشرب فيها من الخمر وتغنيه قينة، إلى أن قام فنام، فعندها دخل عليه البراض، فناشده عروة وقال كانت مني زلة، وكانت الفعلة مني ضلة، فلم يسمع له وقتله. (راجع: العقد الفريد والأغاني).

(٣) ويروى عن البراض أيضاً رجز قاله بعد قتله لعروة، قبل هذا الشعر، وهو يردد فيه قول عروة وندمه على ما كان منه:

قد كانت الفعلة مني ضلة
هلا على غيري جعلت الزلة
فسوف أعلو بالحسام القلة

(٤) الضروع: جمع ضرع، يريد: ألحقت الموالي بمنزلتهم من اللؤم ورضاع الضروع، وأظهرت فسألته، وهتكت بيوت أشراف بني كلاب وصرحائهم.

نشوب الحرب بين قريش وهوازن

قال ابن هشام: فأتى آتٍ قريشاً، فقال: إنّ البرَّاض قد قتل عُروة، وهم في الشهر الحرام بعُكاظ، فارتحلُوا وهوازنُ لا تشْعر(بهم)، ثم بلغهم الخبرُ فاتبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليلُ، ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هَوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً، والقومُ مُتساندون[1] على كلّ قبيل من قريش وكِنانة رئيسٌ منهم، وعلى كلّ قبيل من قيس رئيسٌ منهم.

حضور رسول الله(ص) وهو صغير فيها

وشهد رسول الله(ص) بعض أيامهم،أخرجه أعمامهُ معهم. وقال رسول الله(ص): كنت أُنبِّل على أعمامي: أي أردّ عليهم نبل عدوّهم إذا رموْهم بها.

وفي هذه الحرب مات خويلد بن أسد والد خديجة.

---

(١) متساندون: أي ليس لهم أمير واحد يجمعهم.

بحث مفصل في نسبها

لو تمعنّا جيداً لوجدنا أن نسبها هو نفس نسب النبي الأكرم(ص) فأجدادها كانوا كلهم أنبياء وأوصياء وحملة لشريعة الله إلى أن انتقلت تلك الشريعة المحفوظة إلى عبد مناف أخو عبد العزى جد خويلد. ونشرع الآن بالحديث عن أحوال أولئك العظام:

عدنان المذكور بن «أدد» واسم أمه «بلهاء»، وفي أيام طفولته كانت بوارق الرشد والشهامة تلتمع على جبينه المبارك، وكان كهنة ذلك العهد ومنجّمو تلك الأيام يقولون بأنّه سيظهر من نسله شخص يطيعه الإنس والجان، ولهذا السبب برز له أعداء كثيرون.

ولما بلغ عدنان الرشد غدا سيّد قومه وقبلة العرب، كما أن ساكني البطحاء وسكّان يثرب وقبائل البرّ كانوا منقادين مطيعين لحكمه.

ولمّا فرغ «بختنصر» من فتح بيت المقدس صمّم على قهر بلاد العرب وأهلها، فتصدى له عدنان حرباً وقتالاً، وقضى على الكثير من أعوانه، غير أنه تغلّب على عدنان في النهاية، وقتل عدداً من رجاله، الأمر الذي لم يبق معه مجال لإقامة عدنان ورجاله حيث هم، وغدوا لا مندوحة لهم عن أن يتفرّق كلٌّ منهم في اتجاه، وتوجّه عدنان مع أبنائه إلى اليمن، حيث تحوّل هذا الملاذ وطناً له، بقي فيه حتى وافته منيّته.

وكان لعدنان عشرة من الأبناء، منهم معدّ وعكّ وعدن وأُدّ وغنى، وذلك النور الذي كان قد أشرق في جبين عدنان تلألأ في طلعة ابنه معدّ، كما أن هذا النور المبارك في وجود نبي آخر الزمان لهو الدليل الواضح على انتقاله من صلب إلى صلب، ولأن ذلك النور الطاهر قد انتقل إلى معدّ، واتفق أن «بختنصر» قد فارق الدنيا وأصبح الناس في أمان من شرّه، فقد أرسل نفر في طلب معدّ، واستقدموه إليهم في جماعة من العرب، وأصبح نقيباً للذريّة، ومن صلبه خرج أربعة أبناء، وانتقل نور جماله إلى ابنه نزار، وكانت أمه مُعانة بنت خوْشم من قبيلة جدهم، وحين قدم نزار إلى الدنيا، ورأى أبوه نور النبوة يلتمع بين عينيه، سر سروراً عظيماً، وقدّم الإبل ويقال أنه قرّب ألفاً من الإبل، وحيث إن نزراً تعني القلّة فقد سمّي الطفل نزاراً، وحين بلغ رشده، وتوفّي أبوه، ترأس نزار قبيلته، وأصبح سيداً للعرب، وأنجب أربعة أبناء، وحين شعر بدنّو الأجل المحتوم يمّم من البادية شطر مكّة المعظّمة، ووافاه الأجل هناك.

أما أبناؤه الأربعة فأوّلهم، ربيعة، والثاني إنمار، والثالث مُضَر، والرابع إياد، وتروى عنهم قصة لطيفة معروفة في صدد تقاسمهم لأموال أبيهم، ورجوعهم في ذلك إلى حكم «أفعى الجرهمي»، وكان بارعاً في علم الكهانة، كما كان مرجعاً للأعاظم والأشراف في نجران.

ومن إنمار خرجت قبيلتان: خَشعَم وبجيلة، وكانتا تستوطنان اليمن، وإلى إياد يُنسب قسّ بن ساعدة الإيادي، الذي كان من حكماء العرب

وفصحائهم، كذلك تفرعت عن ربيعة ومُضر قبائل كثيرة أيضاً، كما أن نصف العرب ينسبون إليهما، وقد أصبحوا مضرباً للمثل من حيث كثرة أعدادهم.

وفي فضل ربيعة ومضر يكفي ما روي عن النبي(ص) أنه قال: «لا تسبّوا مضر وربيعة فإنهما مسلمان».

ومُضَر (بضمّ الميم وفتح الضاد المعجمة) معدّلة عن ماضر، وتعني الحليب قبل أن يصبح لبناً[1]، واسم مضر: عمرو، وأمّه سوْدة بنت عكّ، وقد انتقل نور النبوة إليه من نزار، ويواصل نسل السادة امتداده.

وكان العرب يولونه الطاعة والانقياد، مما سهل الترويج لدين إبراهيم(ع)، وتمضي الأيام وينجو الناس نحو طريق الإيمان، ويقال إن صوته فاق أصوات جميع الناس حسناً، وكان أول حادٍ للإبل، ومنه أتى إلى الوجود ولدان، أحدهما: عيلان (بفتح العين المهملة وسكون الياء) ومنه أتت قبائل كثيرة.

وثانيهما: إلياس الذي انتقل إليه نور النبوة، فلا غرو أن عظم شأنه بين القبائل بعد أبيه، وقد لُقّب بسيد العشيرة، وكان يدير شؤون القبائل وأمورها بالصلاح وسداد الرأي، وغدا فيصلاً في تلك الأمور.

وحتى ذلك اليوم الذي انتقل فيه النور المحمّديّ من صلبه كانت تسمع

---

(١) وفي المنجد: اللبن الماضر: الحامض، وسمي مضر بذلك لأنه كان مولعاً بشرب اللبن الماضر (المعرّب).

أحياناً هينمات التسبيح، وكان العرب يعظّمونه على الدوام ويعدّونه من الكبراء كلقمان وأشباهه.

أمّه واسمها رباب، وزوجه ليلى بنت جلوان، قضاعيّة يمنيّة، ويقال لها خِنْدِق، رزقت منه بثلاثة أبناء: عمرو وعامر وعمير، ويروى أن الأبناء حين بلغوا سنّ الرشد، رافق عمرو وعامر أمهما ليلى إلى الصحراء، وهناك لاح لهم أرنب يتحرك عن بعد، ثم يفرّ في أحد الاتجاهات، فنفرت منه الإبل خوفاً، لكن عَمراً وعامراً انطلقا في أثره، وكان عمرو الأول في الوصول إليه وتبعه عامر، فاصطاده ثم شواه.

غمر ليلى السرور والزهو مما فعل ولداها، ثم عادت مسرعة إلى إلياس، ولما رأى ما هي عليه من تبختر، سألها «أين تخندفين؟»، (يقال لمن يتبختر ويزهو بنفسه: خِندِفة) قالت ليلى: «أنا دائماً بك أزهو وافتخر».

ولهذا السبب قبائل التي تنتمي بالنسب إلى إلياس: بني خندف[1] (بكسر الخاء والدال المهملة المكسورة، على وزن زبرج)، ومن هنا أيضاً أن إلياس لَقّب عَمراً بـ «مُدركة»، لأنه كان أول من أدرك الأرنب، كما لَقّب عامراً بـ «طابخة» لأنه اصطاده وشواه، ولأن عميراً كان أثناء هذه الواقعة منقمعاً في الخباء، منصرفاً عن القيام بشيء فقد لُقّب بـ «قَمَعَة» (محرّكه).

(١) ولهذا السبب فإن يزيد حين حمل إليه الرأس الشريف للحسين(ع) راح ينشد: لست من خندف إن لم انتقم الخ، فردت عليه زينب(ع): وكيف يرتجى من لفظ فوه أكباد الأزكياء إلخ.. فنسبته إلى أكلة الأكباد لأنه ابن زنا.

وإجمالاً، فقد كانت خِندف مغرمة بإلياس كثيراً، ويقال إنها حزنت عليه حزناً شديداً عند موته، فلم تفارق قبره، بعد أن شيّدت فوقه سقفاً يظله، حتى وافتها المنية على ذلك.

ثم انتقل نور النبوة من إلياس إلى مدركة (بضم الميم وكسر الراء)، ويقال إن هذا هو السبب في بمدركة، إذ نال وأدرك كل الشرف الذي كان يحوزه أباؤه، كما كان يكنّى بـ «أبي الهُذَيْل»، وزوجه تدعى سلمى بنت أسد بن ربيعة بن نزار، وقد رزق منها بولدين أحدهما خُزَيمة والآخر هُذَيل، وهو أبو قبائل كثيرة.

ثم انتقل نور النبوة إلى خزيمة (بضم الخاء وفتح الزاي المعجمتين)، الذي حكم قبائل العرب بعد أبيه، ورزق بأبناء ثلاثة: كنانة، ونون، وأسد، وكنانة (بكسر الكاف) أمّه عوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان بن مضر، وكنيته أبو النضر، وحين كان يترأس قبائل العرب قيل له في نومه: تزوّج من برّة بنت مرّ بن أُدّ بن طابخة بن إلياس، ترزق منها بولد يكون أوحد زمانه، فتزوج برّة ورزق منها بأولاد ثلاثة: النضر، وملك، وملكان.

كما تزوج من هالة وكانت قبيلة الأزد ورزق منها بولد يدعى بعبد مناة، ومن بين جميع أبنائه فقد سطع نور النبوة من جبين النضر، وسبب تسميته بالنضر (بفتح النون وسكون الضاد المعجمة) يعود إلى

نضارة وجهه، كما يدعونه بـ قريش أيضاً، وكانت كل قبيلة يعود نسبها إلى النضر تدعى قرشيّة، وتتضارب الأقوال في سبب تسمية النضر بقريش، ولعل أقربها إلى الصحة هو أن النضر إذ كان رجلاً عظيم القدر ذا حصافة، وكان سيد قومه، فقد عمل على لمّ شمل من تفرّق من قبيلته، فكانوا - يجتمعون كل صباح حول خوانه المبسوط، ومن هنا نال لقب قريش، ذلك أن التقرّش يعني التجمّع.

وكان النضر أباً لوالدين هما مالك ويَخْلُد. وكان النبوة نور في جبين مالك، وأمّه عاتكة بنت عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان، وكان لمالك ابن يدعى فِهراً (بكسر الفاء وسكون الهاء)، وأمّه جندلة بنت الحارث، الجرهميّة.

وكان فِهر رئيس الناس بمكة في زمانه، ويقال له جمّاع قريش، وكان له من ليلى بنت سعد بن هذيل أربعة أبناء: غالب، ومحارب، والحارث، وأسد، ومن بينهم انتقل نور النبوة إلى غالب.

وكان لغالب ابنان من سلمى بنت عمرو بن ربيعة، الخزاعيّة، هما: لؤيّ وتيم، وانتقل نور النبوة الشريف إلى لؤي، ولؤي (بضم اللام وفتح الهمزة وتشديد الياء) تصغير اللآي ويعني النور، وكان له أربعة أبناء هم: كعب، وعامر، وسامة، وعوف، ومن بين جميعهم انتقل نور النبوة إلى كعب، وأمه مارية بنت كعب القضاعية، وكان كعب بن لؤي من

صناديد العرب، عظيم القدر في قريش يفوق من عداه، وكان بيته ملجأ وملاذاً للآئذين، وكان من عادة العرب أن يؤرخوا لعظمائهم بواقعة كبيرة تقع لهم، فلا جرم أنّهم أرّخوا عام وفاته وكان بعد هبوط آدم بـ ٥٦٤٤ عاماً، إلى عام الفيل.

وكان كعب أباً لثلاثة أبناء، هم: مُرّة(بضم الميم وتشديد الراء)، وعُديّ، وهُصيص (بمهملات كزبير)، وكان هصيص أكبر اخوته، وكان له ابن باسم عمرو، ولعمرو ابنان هما سهم وجُمَح (بضم الجيم وفتح الميم)، وإلى سهم يُنسب عمرو بن العاص، وإلى جمح يُنسب عثمان بن مظعون، وصفوان بن أميّة، وأبو محذورة مؤذّن رسول الله(ص)، وإلى عديّ بن كعب يُنسب عمر بن الخطاب.

ومرّة بن كعب هو من انتقل إليه النور المحمّدي من أبيه، وكان له ثلاثة أبناء: الأول كلاب، وأمه هند بنت سُرَير بن ثعلبة، والثاني تَيمْ (بفتح التاء وسكون الياء) وثالثهم يَقَظة (بفتح الياء والقاف)؛ وأم الأخيرين البارقيّة، وإلى تيم تنسب قبيلة أبي بكر وطلحة، وكان ليقظة ابن اسمه مخزوم، وإليه ينتسب بنو مخزوم ومنهم أم سَلمة، وخالد بن الوليد، وأبو جهل، وكان لكلاب بن مرّة ولدان، أحدهما زهرة وتنسب إليه آمنة أمّ رسول الله(ص)، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الرحمن بن عوف، والثاني قُصيّ(بضم القاف وفتح الصاد المهملة وياء مشدّدة) واسمه زيد، وإنما سمّي قصيّاً لأن أمّه فاطمة بنت سعد تزوجت بعد

وفاة زوجها كلاب من ربيعة بن حرام القضاعي، وكان أخوه الأكبر زهرة قد تخلّف في مكة، وقصيّ طفل، فاحتمله زوج أمه إلى قومه بني قضاعة مع أمّه، فسمّي قصيّاً لأنّه أُقصي عن مكة، وحين بلغ مبلغ الرجال رافق أمه وأخاه لأمّه زرّاج بن ربيعة[1] إلى مكّة في موسم الحج، مع لفيف من حجّاج بني قضاعة، حيث بقي هناك إلى جانب شقيقه زهرة، حتى تسنّم ذروة الملك.

كان كبير مكة في ذلك العهد هو جُلَيْل بن حبْسيّة (بحاء وسين مهملتين على وزن وحشيّة)[2] وكان قد استولى على مكة مع قومه بني خزاعة، بعد حكم الجرهميين، وكان ذا بنين وبنات منهم ابنته حُبّى(بضم الحاء المهملة وتشديد الياء الموحدة)، وقد اتخذها قصي زوجة له، وحدث أن ظهر وباء في مكة فغادرها جُليل وقومه، حيث وافته المنيّة وهو خارج مكّة، وكان قد أوصى بأن تؤول حجابة البيت بعده إلى ابنته حُبّى على أن يشركها في ذلك أبو غبشان الملكاني، واستقرّ الأمر على هذه الحال زمناً رزق فيه قصيّ مع زوجته بأربعة بنين وهم: عبد مناف، وعبد العزّى، وعبد قصيّ، وعبد الدار.

وقال قصيّ لزوجته: إن ابنك عبد الدار أولى بتسلّم ولاية الكعبة، كي لا تخرج ولايتها عن أبناء إسماعيل(ع):

---

(١) في تاريخ الطبري: رزاح بن ربيعة (المعرّب).

(٢) في تاريخ الطبري: حُلَيل بن حبشية (المعرب).

قالت: لا مانع لديّ أبداً من جهة ولدك، ولكن... ما العمل مع أبي غبشان، وهو - بحكم وصية أبي - شريك لي؟.

قال قصيّ: دعي علاج هذا الأمر لي، فهو عليّ هينّ.

هكذا تنازلت حبّى عن حقّها في حجابة الكعبة لابنها عبد الدار، وبعد أيّام قصد قصيّ الطائف حيث يقيم أبو غبشان.

وفي إحدى الليالي، وأبو غبشان مشغول في مجلس شرابه، حضر قصيّ إلى المجلس، وتريّث ريثما بلغ السكر من أبي غبشان مبلغه، فاشترى منه ولاية البيت بزقّ خمر، وأحكم صفقته بشهادة الشهود، وتسلم منه مفتاح البيت، ثم عجّل بالعودة إلى مكّة حيث سلّم المفتاح إلى ولده عبد الدار في محفل من أهل مكّة جمعة لهذا الغرض.

أما أبو غبشان: فإنه لمّا استفاق ندم أشدّ الندم على فعلته، بعد أن أسقط في يده، وغدا مضرب المثل في الحمق بين الأعراب، حتى كان يقال: أحمق من أبي غبشان، أندم من أبي غبشان، أخسر صفقة من أبي غبشان.

وهكذا استتب الأمر لقصيّ، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، فالحجابة هي الاحتفاظ بمفتاح البيت، والقيام بفتحه أمام الحجيج وإغلاقه، والسقاية والرفادة تعنيان تقديم الماء والطعام لضيوف البيت، وقد ابتاع قصيّ أرضاً في جوار بيت الله فابتنى فيها داراً

للندوة حيث كان سادة قريش يجتمعون للشورى، وجعل بابها إلى المسجد، كما كان يعقد ألوية الحروب العامة لأمراء الجيش.

واستقرّ هذا الأمر في أبناء قصيّ حتى عهد رسول الله(ص). وإجمالاً فإن قصيّاً جمع الناس وقال لهم:

يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وإن الحجاج ضيوف الله وزوّاره، وهم أحقّ الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيا هذا الحج، حتى يصدروا عنكم. ففعلوا، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم، فيدفعونه إليه، فيصنعه طعاماً للناس، فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية حتى قام الإسلام.

ثم قسّم قصيّ مكة أربعة أقسام، أسكن فيها قريشاً، ولما رأى بنو خزاعة وبنو بكر غلبة قصيّ على مكّة جمعوا جيشاً لحربه، فهزم أمامهم في بادئ الأمر، لكنه استنجد بأخيه لأمّه زرّاج بن ربيعة، فأقبل إليه زرّاج وفي اخوة له آخرين من أبيه ربيعة، ومعهم قوم من قضاعة، ومع قصيّ قومه من بني النضر، فمالت كفّة الحرب لمصلحته، فأجلى خزاعة عن البيت واستقرّ له أمر قريش والعرب، ثم جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال إلى مكة، فسمّي «مجمّعاً» وفي هذا يقول الشاعر:

أبوكم قصيّ كان يدعى مجمّعاً

به جمع الله القبائل من فِهْرِ

وهكذا عظم شأن قصيّ، فكان لا يُقضى أمر دون إذن منه، ولا تُنكح امرأة ولا يعقد لواء إلاّ في داره، وكانت أحكامه في قومه كالدين المتّبع، في حياته وبعد مماته.

فوّض قصيّ أمر السقاية والرفادة والحجابة واللواء ودار الندوة إلى ولده عبد الدار، وورث ذلك عنه أولاده من بني شيبة.

وبعد أن أتم قصيّ واجباته وافته المنية، فدفن في الحَجون (بفتح الحاء المهملة وضم الجيم وسكون الواو) وهي مقبرة تقع عند مشارف مكة.

وبعد وفاة قصيّ انتقل النور المحمّدي إلى عبد مناف، واسمه المغيرة، وكان يُلقّب بقمر البطحاء لجماله، وكنيته أبو عبد شمس.

وانتقل نور أم المؤمنين إلى عبد العزّى ثم إلى أسد فخويلد وقد مر ذكر خويلد سابقاً.

خديجة مع نساء مكة

ومقولة اليهودي

لقد ذكر ابن هشام هذه المقولة عن السيدة خديجة ارتأيت أن أذكرها، قال: إن هذه السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ، أوسطُ نساء قُريشٍ نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، وأحرصهن على التزام جانب الأمانة، والاحتفاظ بسياج العفة والكرامة، أولاها قدمها - لهذه الصفات - من نفوسهم مكانة أي مكانةٍ، وتبوّؤها بينهم مرتبة عظيمة[١].

وجاء في (سير أعلام النبلاء) إن خديجة هي: «سيدة نساء العالمين القرشية الأسديّة، وهي ممن كَمُل من النساء، كانت عاقلة جليلة، ديّنة مصونة كريمة، من أهل الجنّة»[٢].

أردنا من خلال تلك الروايتين ذكر صورة مختصرة عن شخصية خديجة بنت خويلد، لكن هل كانت كأي امرأة كانت تعيش في الجاهلية أم إنها من طراز آخر؟، وهل كانت ذات عَقْليَّة محدودة كنساء الجاهلية أم كما وصفت «وهي ممن كمُل من النساء»..

---

(١) السيرة، لابن هشام.

(٢) انظر سيرة أعلام النبلاء، مجلد ٢، ترجمة ١٦، ص١٠٩.

قال ابن إسحاق: وكانت خديجةُ بنتُ خويلد امرأةً تاجرة ذاتَ شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضار بهم إياه (أي: تقارضهم)، بشيء تجعلهُ لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً[١]، وكانت تبعث إلى الشام فيكون عيرها كعامّة عير قريش[٢]، وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة لشدّة عفافها وصيانتها[٣].

وروي أن نساء مكة اجتمعت ذات يوم بالمسجد الحرام يحتفلّن بعيد من أعيادهن - في رجب- وذلك حين كان دين أهل مكة الشرك بالله، وحين كان بيت الله الحرام مرتعاً ومأوى ومؤلاً لأصنام قريش ومسرحاً لأوثانها: ففي جوف الكعبة صنم قريش الشهير «هُبل» ومن حوله عدد كبير من الأصنام والأوثان المتعددة الأسماء والتي تأخذ أشكالاً متجانسة.

فلم يتركن شيئاً من أكابر ذلك العيد إلا آتينه، فبينا هنّ عكوف عند وثن، فإذا برجل غريب عن قريش قيل أنه يهودي، مرّ بهؤلاء النسوة، وهُنَّ في اجتماعهن هذا يحتفلن بعيدهن، وكان من بينهن الشابات ومن بينهن العجائز المسنات، وتمهل الرجل في سيرة يتأمل منظرهن هذا، ومن حولهن الأصنام والأوثان، ثم طافت به خواطر رسمت على شفتيه ابتسامةٍ، فلم يملك نفسه، فتكلم، ووجَّه حديثه إلى النسوة جميعهن

---

(١) السيرة النبوية، ج١، ص٢٢٤.

(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج٨، ص١٢.

(٣) السيرة النبوية، ج١، ص٢٢٤، هامش.

قائلاً: يا معشر نساء قريش!! إنّه يوشك أن يبعث فيكن نبي قَرُبَ وجوده، فأيتكنّ استطاعت أن تكون زوجاً له فلتفعل[١]،[٢] قطع اليهودي بكلامه هذا على النساء حديثهن، ونظرن إلى الرجل الغريب في دهشة واستعجاب، ثم نظر بعضهن إلى بعض متسائلات؟، من هذا الرجل الغريب الذي يوجه إلينا هذا الكلام؟!!. وما الذي يقصده من وراء قوله هذا؟!.

وكان جواب بعضهن لبعض، بعد أن تفرسن في وجهه، إنّه رجُلٌ يهوديٌ غريب عن الديار!! فكل رجال مكّة يعرفهن النساء وقالت إحداهن: وما قصدَ بقوله هذا إلاّ الاستهزاء بنا، وتعيب آلهتنا، وهبَّ النساء يسبَّن الرجل ويشتمنه، وزاد بعضهن فأخذت يحصبنّه بالحصى، ويرجمنّه بالأحجار، حتى ولى بعيداً عنهن ويروي المؤرخون أنه قال: «أنه يوشك فيكن نبي، فأيكن استطاعت أن تكون فراشاً له، فلتفعل، فحصبه النساء، وقبَّحنَّه، وأغلظن له»[٣].

فعلنّ النساء المجتمعات هذا بالرجل إلا سيّدةً واحدةً منهن، أغضت عن قوله، وانصرفت نفسها عن إيذائه ووقع ذلك في نفسها وهي خديجة بنت خويلد..[٤]

---

(١) ابن اسحاق في سيرة ابن هشام، بتصرف.

(٢) وقيل: مثل لهنّ كرجل في هيئة رجل حتى صار منهنّ قريباً ثمّ نادى بأعلى صوته: يا نساء تيماء إنّه سيكون في بلدكنّ نبيّ يقال له أحمد يبعث برسالة الله فأيّما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فلتفعل. فحصبته النساء وقبّحنه وأغلظن له وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض له فيما عرض فيه النساء. (الطبقات الكبرى، ج٨، ص١٢).

(٣) نص الرواية في السيرة.

(٤) راجع السيرة الحلبيّة، ج١، ص١٣٩.

وروي أنه نادى بأعلى صوته:

«يا نساء مكّة قدْ أن ظهور المنتظر، فمن مِنْكُنَّ ستكونُ لهُ؟..» فكذّبنهُ ورمينهُ بالحصى، وكانت خديجةُ بينهنَّ فلم ترمه كما فعلنْ، بلْ لبثت في مكانها مُطرقةً واجمةً، لا تستطيعُ حِراكاً ممّا انتابها مِنْ دقّات قلْبٍ[1].

السِّيرُ وكُتبُ التاريخ تُوردَ هذه الرّواية على نحوٍ مِن التأكيد بأنّها حادثةٌ وقعتْ بين كُلِّ هذه النِّسوة والمُنادي الغريب، وقد يكونُ ذلك حقّاً لا لبس فيه، فليس ممّا يُستبعدُ وقوعُهُ.

---

(١) راجع السيرة الحلبية، ج١، ص١٣٩.

رؤيا خديجة

ذكرت الرواية بأن خديجة(رضوان الله عليها) رأت في منامها «كأنَّ شمْساً عظيمةً تهبطُ إلى منزلها من سماء مكّة، فيغمرُ ضوءها ما يُحيطُ المنزل من أماكن قصيَّةٍ وبقاع. وتهبُّ من نومها مُضطربةً، وتُسارعُ الخطو نحو دار ابن عمِّها «ورقة» تقصُّ عليه ما رأت بأسارير واجفةٍ، ويُنبئها بسرِّ الرُّؤيا بوجهٍ مُتهلّل، وأنّ تلك الشمس علامةُ مجيء المنتظر، وحُلُولها بمنزلها علامةُ أنها تحضنُهُ وتبيتُ أدْنى ما تكونُ منهُ».

في هذا الأمر تسكت السيرُ وكتبُ التاريخ، عن حلم خديجة العظيم لما كانت تنتظرْ وتتمنى أن يتحقق بأسرع وقت، وهو انتظارها لهذا المنتظر الذي سينقذ هذه الأمة من عميانها ويفتح عيونها على الطريق الصحيح فأخذ كلام اليهودي يجول في ذهنها، ومن يا ترى يكون ذلك النبي؟!! هل هو فعلاً من مكة أم لا؟، ومن التي ستكون صاحبة الحظ العظيم وتنال منقذ الأمة وتتعلم على يده وتصبر معه، بدأت أفكار خديجة في تضارب وقلبها يشتاق لرؤية هذا النبي العظيم، وبعد كل ما جرى لها من حوادث ومقالة ورقة بن نوفل إليها، أصبحت خديجة مطمئنة بأنها هي المنتدبة لهذا المكان العظيم، يقول الشيخ عبد الله العلايلي:

«وعلى هذه السُّنة من النَّفاذ المُمعَن في الباطن، أقول: إن عُزلتها المتأمِّلة وما اتفق لها فيها، جعلتْها تحسُّ إحساساً قويّاً بأنها كائن غير عاديّ.. تُحسُّ بأنها منتدبةٌ لرعاية رسالةٍ عُليا، فيها من وجد قلب الأرض وسخاء قلب السّماء، فيها قبسُ حنينٍ من هنا على قبس حنين من هُناك، اتسقا في لحنٍ كان في سمع الأبد إذ كان في سمع الأزل.

باتت تطمئنُّ اطمئناناً بالغاً إلى أنّها مُنتدبةٌ هذا الانتداب، لا سيَّما وكُلُّ ما صادف ووقع لها كان يُؤكِّدُ عندها هذا الاطمئنان»[1].

لكن بقي لدينا سؤال من هذا ورقة الذي تلجأ إليه خديجة كل ما حدث لها حادث؟!!!

---

(١) مثلهنَّ الأعلى السيدة خديجة، الشيخ عبد الله العلايلي، ص: ٤٨.

ورقة بن نوفل

يعتبر ورقة بن نوفل من الثقات، تلجأ إليهم خديجة في أمورها المهمة. وورقة من أقاربها وهو ابن عمها وكان عاكف على دراسة كتب النصارى واليهود ويعمل بما يستحسنه منهما، لا لأنه كان يعاشر النصارى واليهود ولا لأن مكة كانت مقراً لهما، بل لأنه كان يسخر من عبادة الأصنام والتماثيل ويبحث عن دين يطمئن إليه.

ويحدث الإخباريون والمؤلفون في سيرة الرسول أن النبي(ص) حينما رأى تباشير النبوة في غار حراء وسمع من يكلّمه في الغار وعاد إلى بيته خائفاً غريب النظرات يقص على زوجته الوفية الصادقة ما رأى وما سمع، أسرعت إلى ابن عمها لتقص عليه ما جرى للنبي(ص) فبشرها بمستقبله العظيم الذي سيهز العالم بأسره ويحدث تحولاً في تاريخ البشرية، وبما سيلاقيه من قومه من عسف وجور واضطهاد، وإن شاء الله سوف نبحث ذلك بالتفصيل.

وقد كانت خديجة كثيراً ما تسمع من ورقة شيء يقبل العقل والمنطق وترى في حال قومها ما لا يُقنع عاقل أو متعقل.

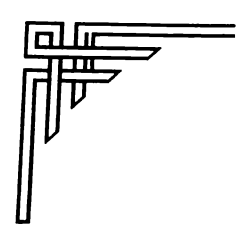
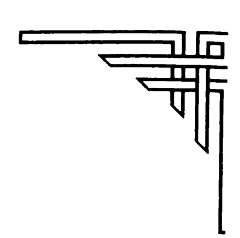
فكان ورقة يعيب على أهل مكة عبادتهم للأصنام وسجودهم للأوثان، وخروجهم على الدين القويم، دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل،

الذي دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فلم يسايرهم أبداً وبقي على دين إبراهيم الحنيف، فلم يشرك بالله أحداً، وحرّم على نفسه الخمر، واجتنب الميسر، وصار يفتدي المؤُدة من ماله، فإذا ما سمع أن أباً يريد قتل ابنته لفقر أو لخشية عارٍ، تقدَّم إليه، فكفلها عنه، حتى إذا ما شبّت رغب الأب فيها أعادها إليه.

ولما لم يجد ورقة ما يدله ويرشده إلى تعاليم الأديان الصحيحة، أخذ بدراسة التوراة والإنجيل، ونقل عنهما إلى العربية ما استطاع أن يفهم ويستخلص ويمكن نقله، وأخذ ذلك من عمره الكثير إلى أن أصبح شيخاً مُسنّاً.

لذلك أصبح ورقة هو الشخص الذي يمكن لخديجة أن تسأله فيما يدور في ذهنها ويشغله من أُمور الدين وأخبار الأولين، وكان حديث اليهودي هو الذي جعل بالها مشغول، فعرضته على ورقة بن نوفل ابن عمها، ورؤيتها التي تؤكد ما قاله اليهودي وغير ذلك كثير...

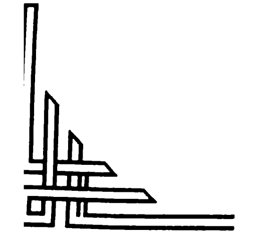
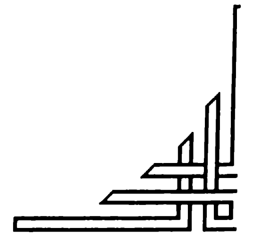
ومن جميع ذلك نستدل إن السيدة خديجة بنت خويلد كانت امرأة ليست كمثلها فهي التي تجري وراء الحقيقة وهي التي كانت تحاور العلماء وتجالسهم أمثال ابن عمها ورقة بن نوفل، وكانت خديجة على يقين من حديث اليهودي وتنتظر بشوق لرؤية ذلك النبي العظيم...

الفصل الثاني

إفتراءات على السيدة

خديجة بنت خويلد

افتراءات على السيدة خديجة بنت خويلد

لقد ذكرت بعض الروايات والقصص التي تمس بالذات المقدسة أم المؤمنين وأم الأئمة من أجل بعض الأغراض الشخصية والمصالح الخاصة لأناس معينين، فاشتروا الدنيا وباعوا الآخرة، هدانا الله وإياهم ونور طريقنا على الصراط القويم..

الافتراء الأول

خديجة وزواج الجاهلية

روي أن خديجة تزوجت قبل أن تتشرف بالزواج من الرسول(ص)، وكان أول زواجها من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، مات عنها، وفي رواية ولدت له بنتاً يقال لها هند، ثم تزوجت أبا هالة بن زرارة التميمي، حليف بني عبد، وقيل هو (أبا هالة بن النباش بن زرارة بن وقدان بن حبيب)، ومات عنها أيضاً، وأنجبت منه هند بن أبي هالة(رضي الله عنه)، وهو ربيب النبي(ص)، فقد نشأ وتربى وترعرع في حجر النبي(ص).

وجاء في الطبقات لابن سعد قال: «وكانت خديجة بنت خويلد قبل أن يتزوّجها أحد قد ذُكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى بن قصيّ

فلم يقض بينهما نكاح فتزوّجها أبو هالة واسمه هند بن النّباش بن زرارة بن وقدان بن حبيب بن سلامة بن غُوَيّ بن جروة بن أُسيّد بن عمرو بن تميم. وكان أبوها ذا شرف في قومه ونزل مكّة وحالف بها بني عبد الدار بن قصيّ. وكانت قريش تُزوّج حليفهم. فولدت خديجة لأبي هالة رجلاً يقال له هند وهالة رجل أيضاً. ثمّ خلف عليها بعد أبي هالة عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فولدت له جارية يقال لها هند فتزوّجها صيفيّ بن أميّة بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمّها، فولدت له محمداً. ويقال لبني محمد هذا بنو الطاهرة لمكان خديجة، وكان له بقيّة بالمدينة وعقب فانقرضوا، وكانت خديجة تدعى أمّ هند»[١].

---

(١) الطبقات، لابن سعد، ج٨، ص: ١١-١٢.

الافتراء الثاني

زينب ورقية وأم كلثوم بنات خديجة ورسول الله(ص)

جاء في الطبقات لابن سعد قال: زينب بنت رسول الله(ص)، وأمّها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصيّ، وكانت أكبر بنات رسول الله(ص)، تزوّجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزّى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ قبل النبوّة..[1].

وجاء في نفس المصدر أن رقيّة بنت رسول الله(ص)، وأمّها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ. كان تزوّجها عتبة بن أبي لهب بن عبد المطّلب قبل النبوة، فلمّا بُعِث رسول الله(ص) - وأنزل الله ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾[2] قال له أبوه أبو لهب: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلّق ابنته. ففارقها ولم يكن دخل بها... إلى آخر الرواية[3].

وجاء أيضاً في نفس المصدر إن أم كلثوم بنت رسول الله(ص)، وأمّها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قصيّ. تزوّجها عتيبة بن أبي لهب بن عبد المطّلب قبل النبوة، فلمّا بُعث رسول الله(ص) وأنزل

---

(١) نفس المصدر السابق، ص: ٢٥.

(٢) سورة المسد، آية: ١.

(٣) الطبقات، لابن سعد، ج٨، ص: ٢٩.

الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[١] ، قال له أبو لهب: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلّق ابنته. ففارقها ولم يكن دخل بها.. إلى آخر الرواية[٢].

والأخيرتان أي رقية وأم كلثوم تزوجا من عثمان بن عفان..

---

(١) سورة المسد، آية: ١.

(٢) الطبقات، لابن سعد، ج٨، ص: ٣٠.

الإفتراء الثالث

عمر خديجة

أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا مغيرة بن عبد الرحمن الأسدي عن أهله قالوا: سألنا حكيم بن حزام أيّهما كان أسَنّ رسول الله(ص)، أو خديجة، فقال: كانت خديجة أسنّ منه بخمس عشرة سنة..[١]

وأخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا المنذر بن عبد الله الخزامي عن موسى بن عُقْبة عن أبي حبيبة مولى الزبير قال: سمعتُ حكيم بن حزام يقول: تزوّج رسول الله(ص)، خديجة وهي ابنة أربعين سنة ورسول الله(ص)، ابن خمسٍ وعشرين سنة، وكانت خديجة أسنّ مني بسنتين، ووُلدَت قبل الفيل بخمس عشرة سنة وولدتُ أنا قبل الفيل بثلاث عشرة سنة[٢].

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج٨، ص١٢.

(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج٨، ص١٢.

الرد على الإفتراء الأول

أنّ هناك بعض القدماء مَن يقول بأنّها لم تتزوّج قبل رسول الله(ص)، وممّا يؤكد كلامنا، قال ابن شهر آشوب: «روى أحمد البلاذري، وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضى في الشافي، وأبو جعفر في التلخيص: أن النبي(ص) تزوج بها، وكانت عذراء.

يؤكد ذلك ما ذكر في كتابي الأنوار والبدع: أن رقية وزينب كانتا ابنتي هالة أخت خديجة»[١]، كما سيأتي ذكره.

وإنّما التي تزوّجت عتيق ثم أبا هالة هي أختها، وبما أن اسم خديجة كان معروفاً واسم أختها غير معروف، فنُسب الزوجان وأولادهم إلى خديجة دون أختها، ومن القائلين بهذا القول هو علي بن أحمد الكوفي العلوي المتوفّى سنة ٣٥٢ هـ، قال في كتاب الاستغاثة:

وقد صحّت الرواية عندنا بأنّه كان لها أخت من أمها تسمّى هالة، قد تزوّجها رجل من بني تميم يقال له أبو هند، فأولدها ابناً اسمه هند بن أبي هند وبنتين زينب ورقيّة، ومات أبو هند وقد بلغ ابنه مبلغ الرجال والابنتان طفلتان. وكانتا موجودتين حين تزوّج رسول الله(ص) خديجة

---

(١) مناقب آل أبي طالب، ج١، ص١٥٩.

بنت خويلد، وماتت هالة بعد ذلك بمدّة يسيرة وخلّفت الطفلتين زينب ورقية في حجر رسول الله(ص) وحجر خديجة.

وكان من سنّة العرب في الجاهلية أنّ مَن يربّي يتيماً ينسب ذلك اليتيم إليه، ولا يستحل التزوّج بمن يربيها، لأنها كانت عندهم بزعمهم بنتاً لمربيها، فلما ربّى رسول الله(ص) وخديجة هاتين البنتين نسبتها إليهما، وهما بنتا أبي هند زوج هالة أخت خديجة.

ولم تزل العرب على هذه الحالة إلى أن ربّى بعض الصحابة يتيمة بعد الهجرة، فقالوا: لو سألت رسول الله(ص): هل يجوز في الإسلام تزويج اليتيمة بمن ربّاها، فأنزل الله جلّ ذكره آية في تجويز ذلك، فكانت الجاهلية تنسب هاتين البنتين إلى النبي(ص)، ثم نسب أخوهما هند إلى خديجة، وكان اسم خديجة على اسم هالة أختها ثم نسب هند إليها وأن أبا هند كان متزوّجاً بخديجة قبل رسول الله(ص)[1].

ولا بد لنا من أجل تأييد ما رواه أبو القاسم الكوفي من أن نشير إلى أن البحث العلمي الموضوعي لا يؤيد دعوى البعض: أن خديجة قد تزوجت برجلين قبل النبي(ص) والبعض بثلاثة.

ولعل هذه الدعوى قد صنعتها يد السياسة، أو أنها قد جاءت لتكريس فضيلة لعائشة أم المؤمنين، مفادها: أن رسول الله(ص) لم يتزوج بكراً غيرها.

---

(١) الاستغاثة، ص٧٥.

إذ أن المتتبع للتاريخ والحديث يلمس حرصاً ظاهراً من أم المؤمنين، ومن محبيها، وخصوصاً الزبيريين منهم، على تسطير الفضائل لها، ولو بالإغارة على فضائل غيرها، ونسبتها إليها، كما كان الحال في قضية الإفك.

وما نستند إليه في شكنا بما يدَّعيه هؤلاء بالنسبة لزواج خديجة بأحدٍ قبل النبي(ص)، بالإضافة إلى ما تقدم نقله عن الاستغاثة، هو ما يلي:

أولاً: اضطراب المعلومات التي يقدمها مدّعو تزوجها (عليها السلام) برجلين قبل النبي(ص)، فقد جاءت هذه المعلومات متناقضة ومتضاربة إلى حدٍ كبير. فهل اسم أبي هالة هو «النباش بن زرارة»، أو «أبا هالة بن النباش بن زرارة»، أو «زرارة بن النباش»؟!.

أو اسمه «هند»، أو «مالك»؟!

وهل هو صحابي؟ أو غير صحابي؟!

وهل تزوجته قبل عتيق؟ أو بعده؟![1]، وهل عتيق ابن عائذ أو ابن عابد؟!

وبالنسبة إلى «هند» الذي ولدته خديجة، هل هو ابن هذا الزوج؟ أو ابن ذاك؟!، فإن كان ابن عتيق، فهو أنثى[2]، وإن كان ابن ذاك الآخر فهو ذكر.

---

(١) راجع: الأوائل، ج١ هامش ص ١٥٩.

(٢) راجع: الأوائل، ج١، ص١٥٩، وقال: إن هنداً هذه قد تزوجت من صيفي بن عائذ، فولدت محمد بن صيفي.

وهذا الولد الذكر هل مات بالطاعون؟، أم أنه قتل مع أمير المؤمنين(ع) في حرب الجمل بالبصرة؟[١].

وثانياً: قال أبو القاسم الكوفي:

١- إن الإجماع من الخاص والعام، من أهل الأنال(الآثار)، ونقلة الأخبار على أنه لم يبق من أشراف قريش، ومن ساداتهم، وذوي النجدة منهم إلا من خطب خديجة، ورام تزويجها، فامتنعت على جميعهم من ذلك.

فلما تزوجها رسول الله(ص) غضب عليها نساء قريش، وهجرنها وقلن لها: خطبك أشراف قريش، وأمراؤهم فلم تتزوجي أحداً منهم؟، وتزوجت محمداً يتيم أبي طالب، فقيراً، لا مال له؟!.

فكيف يجوز في نظر أهل الفهم: أن تكون خديجة يتزوجها أعرابي من تميم، وتمتنع من سادات قريش وأشرافها على ما وصفناه؟!.

ألا يعلم ذوو التمييز والنظر: أنه من أبين المحال، وأفظع المقال؟![٢]

وثالثاً: كيف لم يعيّرها زعماء قريش، الذين خطبوها فردّتهم، بزواجها من أعرابي، بوال على عقبيه، لا قيمة له ولا شأن؟! ألم تكن

---

(١) للاطلاع على الاختلافات المتقدمة راجع المصادر التالية، وقارن بين النصوص فيها:
الإصابة، ج٢، ص٦١١-٦١٢ ؛ ونسب قريش لمصعب الزبيري، ص٢٢ ؛ والسيرة الحلبية، ج١، ص١٤٠ ؛ وأسد الغابة، ج١، ص١٢-١٣-٧١ ؛ وقاموس الرجال، ج١٠، ص٤٢١، ونقل من البلاذري، وغير ذلك.

(٢) الإستغاثة، ج١، ص٧٠.

هذه فرصة سانحة لهم للانتقام لأنفسهم، من امرأة لم تكترث بهم، ولا بزعامتهم، ورفضت عروضهم عليها، وتقربهم منها، وتزلّفهم إليها؟!.

ورابعاً: قال ابن شهر أشوب: «روى أحمد البلاذري، وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضى في الشافي، وأبو جعفر في التلخيص: أن النبي(ص) تزوج بها، وكانت عذراء.

يؤكد ذلك: ما ذكر في كتابي الأنوار والبدع: أن رقية وزينب كانتا ابنتي هالة أخت خديجة.

وغير ذلك من الشواهد كثير.

تحذير:

ربما يحاول البعض أن يدعي: أن الحارث ابن أبي هالة، الذي يقول: إنه أول شهيد في الإسلام كان ابناً لخديجة من أبي هالة، وذلك يدل على تزوجها رحمها الله برجل غير الرسول الأكرم(ص).

ونقول:

١- لم يثبت لدينا أن الحارث هذا قد كان ابناً لخديجة لأن الظاهر: أن نسبته لخديجة ليس لها ما يثبتها سوى دعواهم أن السيدة خديجة بنت خويلد قد تزوجت بأبي هالة، وهذا أول الكلام، وهو موضع الإشعال.

٢- دعواهم: أن الحارث هذا أول شهيد في الإسلام - والمدعي لذلك هو الشرقي ابن القطامي - يعارضها:

أ- قول ابن عباس: «لا فقتل أبو عمار، وأم عمار وهما أول قتيلين قتلا من المسلمين»[١].

ب- ما روي بسند صحيح، من أن أول شهيد في الإسلام هو سمية رحمها الله[٢]، وكذا روي عن مجاهد أيضاً[٣].

ودعوى: أن سمية كانت هي أول من استشهد من النساء، والحارث كان أول من استشهد من الرجال.

ليس لها ما يبررها مادام أن كلمة «شهيد» تطلق على الرجل والمرأة على حد سواء، مثل قتيل وجريح، ولأجل ذلك نجد أبا هلال العسكري قد جعل القول: بأن سمية أول شهيد، في مقابل قول الشرقي ابن القطامي في الحارث بن أبي هالة[٤]، [٥].

---

(١) صفين، للمنتقري، ص٢٢٥.

(٢) الإصابة، ج٤، ص٣٣٥.

(٣) الإستيعاب، (بهامش الإصابة)، ج٤، ص٣٣١.

(٤) فراجع الأوائل، ج١، ص٣١٢.

(٥) بنات النبي(ص)، أم ربائبه، السيد جعفر مرتضى العاملي.

الرد على الافتراء الثاني..

بعد أن أثبتنا أن خديجة غير متزوجة في الجاهلية أي لم يكن لها أولاد في ذلك الوقت، لكن الافتراء أن زينب ورقية وأم كلثوم هنَّ بناتها من رسول الله(ص) والرد على ذلك يكون باختصار كالآتي:

١- بنات النبي ولدن في الإسلام.

قال المقدسي: «عن سعيد بن أبي عروة، عن قتادة، قال: ولدت خديجة لرسول الله(ص): عبد مناف في الجاهلية.

وولدت له في الإسلام غلامين وأربع بنات: القاسم، وبه كان يكنّى: أبا القاسم، فعاش حتى مشى ثم مات. وعبد الله مات صغيراً، وأم كلثوم، وزينب ورقية، وفاطمة»[١].

وقال القسطلاني، والديار بكري: «وقيل: ولد له قبل المبعث ولد يقال له: عبد مناف، فيكونون على هذا اثني عشر. وكلهم سوى هذا وُلِدوا في الإسلام بعد المبعث».

وقد صرح الزبير بن بكار وغيره بأن عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، قد ولدوا كلهم بعد الإسلام[٢].

---

(١) البدء والتاريخ، ج٥، ص١٦، وج٤، ص١٣٩.

(٢) تاريخ الخميس، ج١، ص٢٧٢.

وقال السهيلي أيضاً: كلهم ولدوا بعد النبوة[١].

فإذا كانت رقية قد ولدت بعد المبعث، كما يقوله هؤلاء، فكيف يصح أن يقال: إنها تزوجت في الجاهلية بابن أبي لهب، فلما جاء الإسلام أسلمت، فطلقها زوجها، فتزوجها عثمان، وحملت منه، وأسقطت علقة في السفينة، وهي مهاجرة إلى الحبشة، بعد البعثة بخمس سنوات فقط؟!

وكذلك الحال بالنسبة لأم كلثوم، فإنها إذا كانت قد ولدت بعد المبعث، فكيف تكون قد تزوجت في الجاهلية، ثم لما أسلمت بعد المبعث طلقها زوجها قبل الهجرة إلى الحبشة[٢].

٢- سورة المسد:

لقد ذكروا: أن أبا لهب قد أمر ولديه بطلاق بنتي النبي(ص)، بعد نزول سورة: تبت يدا أبي لهب وتب. ووافقته على ذلك زوجته حمالة الحطب، محتجة بأن هاتين البنتين قد صبتا إلى دين أبيهما[٣].

وللرد على ذلك نقول:

أ- إن سورة المسد قد نزلت حينما كان المسلمون محصورين في شعب

---

(١) السيرة الحلبية، ج٣، ص٣٠٨.

(٢) بنات النبي(ص)، أم ربائبه، للسيد جعفر مرتضى العاملي

(٣) الإصابة، ج٤، ص٤٩٠.

أبي طالب[1]، لأن الحصر في الشعب قد بدأ في السنة السادسة بعد البعثة، أي بعد الهجرة إلى الحبشة بسنة...

ب- إنه إذا كان طلاق رقية وأم كلثوم قد حصل بعد نزول سورة المسد، وبعد تعرُّض المشركين للنبي(ص) بالأذى، فإن ما يثير التساؤل هنا هو السبب الذي جعل ابنيّ أبي لهب يمتنعان عن الدخول بزوجتيهما، اللتين كانتا في وضع لا يمنع من ذلك.

وها هو عثمان يتزوج أحداهما ويدخل بها فوراً، فتحمل منه، وتسقط علقة في السفينة حين هجرتهما إلى الحبشة، كما يدّعون!!.

ج- يقول البعض: «أما رقية، فتزوجت من عتبة بن أبي لهب، فمات عنها»[2].

وعليه فإن دعوى طلاق ابن أبي لهب لرقية تصبح موضع شك أيضاً. ولا يبقى وثوق بالسبب الذي ادعوه لذلك، وهو نزول السورة وإسلام البنات، فتترجح رواية نزول السورة، والمسلمون محصورون في الشعب[3].

---

(١) الدر المنثور، ج٦، ص٤٠٨.

(٢) تاريخ أهل البيت، ص٩٢.

(٣) بنات النبي(ص)، أم ربائبه، للسيد جعفر مرتضى العاملي.

٣- سورة الكوثر:

روي عن ابن عباس قال: «ولدت خديجة من النبي(ص). ثم أبطأ عليه الولد من بعده، فبينا رسول الله(ص) يكلم رجلاً، والعاص بن وائل ينظر إليه، إذ قال له رجل: من هذا؟.

قال: هذا الأبتر. يعني النبي(ص).

وكانت قريش إذا ولد للرجل ثم أبطأ عليه الولد من بعده قالوا: هذا الأبتر. فأنزل الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. إن مبغضك هو الأبتر الذي بتر من كل خير.

ثم ولدت له زينب، ثم ولدت له رقية، ثم ولدت له القاسم ثم ولدت الطاهر ثم ولدت المطهر، ثم ولدت الطيب، ثم ولدت المطيب. ثم ولدت أم كلثوم، ثم ولدت فاطمة، وكانت أصغرهم»[1].

وهذه الرواية تفيد: أن نزول سورة الكوثر قد كان قبل ولادة جميع أبنائه(ص) ما عدا عبد الله الذي كانت ولادته في الإسلام عند جل المؤرخين[2].

فيكون تزويج رقية وأم كلثوم من ابني أبي لهب ثم من عثمان محض خيال من الرواة ومن تخرصاتهم.

(١) السيرة الحلبية، ج٣، ص٣٠٨.

(٢) السيرة الحلبية، ج٣، ص٣٠٨ - ومروج الذهب، ج٢، ص٢٩١، وغيرها كثير.

لكن القول هنا بأن عبد الله هو أكبر أولاد النبي(ص) خلاف ما هو مشهور، وذلك لا يوجب القطع ببطلان الرواية، فرب مشهور لا أصل له، ولا منطق يساعده.

تناقض غير مقبول

وقد روى أبو هلال العسكري هذه الرواية على النحو التالي:

«مات القاسم والطاهر - قبل النبوة - فمر رسول الله(ص) راجعاً من جنازة القاسم على العاص بن وائل السهمي، وابنه عمرو، فقال عمرو: إني لأشنؤه. فقال العاص: لا جرم لقد أصبح أبتر، فأنزل الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[1].

فنجد أن هذه الرواية تصرح بموت القاسم قبل النبوة، ثم تقول: إن العاص بن وائل قال ما قال حين رجوع النبي(ص) من جنازة القاسم، فنزلت الآية.

فلا يعقف أن تنزل الآية عليه (ص) في هذه المناسبة إلا بعد النبوة، وذلك ظاهر.

إلا أن يقال: إن نزول الآية قد تأخر عن مناسبتها إلى ما بعد سنوات عديدة. وهو بعيد للغاية، وخلاف ظاهر الرواية، التي جاءت بفاء التفريع.

أو يقال: إن قوله أولاً - قبل النبوة - قد جاء من قبل الرواة، اعتماداً

---

(١) الأوائل، ج١، ص١٦٦.

منهم على ما هو المرتكز في أذهانهم بحسب ما سمعوه قبل ذلك.

وربما يكون ذلك سبق قلم من النساخ. وربما، وربما!![١]

٤- تاريخ زواج خديجة بالنبي(ص)

إن ما ذكروه من تزوج رقية وأم كلثوم بابني أبي لهب يتوقف على أن تكون خديجة قد تزوجت برسول الله في وقت مبكر قبل البعثة.

ونحن وإن كنا نجدهم يروون: أنها رحمها الله قد تزوجت بالنبي(ص) قبل البعثة بخمس عشرة سنة، أو ست عشرة، أو حتى عشرين سنة، كما في بعض الأقوال الشاذة.

إلا أننا نجد أقوالاً أخرى تفيد: أنها رحمها الله قد تزوجت برسول الله(ص) قبل البعثة بعشر سنين[٢].

وقال البعض: تزوجته قبل البعثة بخمس سنين[٣].

وبعض آخر يقول: إنها قد تزوجته قبل البعثة بثلاث سنين[٤].

وربما يرجح هذا القول الأخير ما نقله البيهقي من أنها رحمها الله قد توفيت وعمرها خمسون سنة على الأصح[٥].

(١) بنات النبي(ص)، أم ربائبه، للسيد جعفر مرتضى العاملي.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٧٥.

(٣) الأوائل، ج١، ص١٦١.

(٤) الأوائل، ج١، ص١٦١.

(٥) دلائل النبوة للبيهقي، ط دار الكتب العلمية، ج١، ص٧١.

ويرجحه أيضاً قولهم المتقدم: أنها رحمها الله لم تلد في الجاهلية سوى عبد مناف. وبذلك يتضح: أن القول بأنها قد ولدت رقية، وأم كلثوم في الجاهلية، ثم كبرتا، وتزوجتا بابني أبي لهب، ثم بعثمان، يصبح موضع شك وريب.

ويزيد هذا الريب حتى يصل إلى درجة اليقين بكذب ذلك، بملاحظة سائر الدلائل والشواهد التي أوردناها ونوردها في هذا البحث.

أما الدولابي، فيقول: إن عثمان قد تزوج رقية في الجاهلية[١] ويظهر من الديار بكري أيضاً: أنه جازم بذلك[٢].

ومعنى ذلك: أن ما يذكرونه من زواج بنتيّ رسول الله بابنيّ أبي لهب لا يصح، إذا لوحظ ما يذكرونه من سبب طلاقهما إياهما.

ومما يزيد الأمر وضوحاً: أن أم كلثوم التي يدعى أنها بنت النبي(ص) وطلقها ابن أبي لهب في مكة، ثم تزوجها عثمان في المدينة بعد الهجرة بعدة سنوات، لم نجد لها ذكراً حين الهجرة إلى المدينة، بل المؤرخون يقتصرون على القول: بأن علياً(ع) قد حمل معه الفواطم، وأم أيمن، وجماعة من ضعفاء المؤمنين[٣].

وليس ثمة أيّة إشارة إلى أم كلثوم اطلاقاً، فهل هاجرت قبل ذلك، أو

(١) ذخائر العقبى، ص١٦٢.

(٢) تاريخ الخميس، ج١، ص٤٠٦.

(٣) السيرة الحلبية، ج٢، ص٥٣.

بعده؟، ومع من؟!، ولماذا؟!، أم أنها قد جعلت في جملة الضعفاء؟!، فلماذا إذاً أفردت عن أختها فاطمة، وعن أم أيمن، وجعلت في جملة ضعفاء المؤمنين؟!.

لا ندري، ولعل الفطن الذكي يدري؟!.

وبعد ما تقدم فإننا بالنسبة إلى زينب زوجة أبي العاص بن الربيع نقول:

أ- إن القول في بنّوة زينب الحقيقية لرسول الله(ص) هو نفس القول الذي تقدم في رقية، وأم كلثوم، فإن أكثر ما أوردناه هناك يرد هنا.

ب- إن البعض يقول: إن خديجة قد ولدت للنباش بن زرارة ثلاثة أولاد، هم: هند، والحرث، وزينب[١].

وهذا يؤكد ما يذهب إليه البعض، من أن زينب كانت ربيبة رسول الله(ص).

ج- عن عمرو بن دينار: إن حسن بن محمد بن علي أخبره: أن أبا العاص بن الربيع، بن عبد العزى، بن عبد شمس، بن عبد مناف، وكان زوجاً لبنت خديجة، فجيء به للنبي(ص) في قدٍّ، فحلته زينب بنت النبي(ص)... [٢]

---

(١) نهاية الأرب، ج١٨، ص١٧١.

(٢) المصنف للصنعاني، ج٥، ص٢٢٤.

فكأن هذا النص يريد أن يشير إلى أن المتحدث يرى: أنها كانت بنتاً لخديجة على الحقيقة.

وأما نسبتها إلى النبي(ص) في ذيل كلامه فلعله قد أراد به النبوة بالتربية، وتكون نسبتها إلى خديجة وحدها أولاً قرينة على ذلك.

وقد شرح الشيخ محمد حسن آل يس: أن بعض المصادر تقول: أن زينب قد ولدت للنبي(ص) وكان عمره ثلاثين سنة[١]، وتزوجها أبو العاص قبل البعثة، وولدت له علياً - مات صغيراً - وأمامة، وأسلمت حين أسلمت أمها في أول البعثة، قال: وذلك غير معقول، إذ لا يمكن لبنت في العاشرة أن تتزوج ويولد لها بنت، وتكبر تلك البنت حتى تسلم مع أمها في أول البعثة. هذا، وحيث لا تزال أمها في العاشرة من عمرها[٢].

٢- زينب ورقية بنات من:

قد ذكرنا سابقاً في الافتراء الأول أن زينب ورقية بناة أخت خديجة، التي تزوجت عتيق ثم أبا هالة، وكان اسم خديجة معروف واسم أختها غير معروف، فنُسب الزوجان وأولادهم إلى خديجة دون أختها، ومما زاد الأمر شكاً أن خديجة ذات مال وأختها فقيرة فعند موت عتيق وأبو

---

(١) أسد الغابة، ج٥، ص٤٦٧.

(٢) كتاب النبوة، للشيخ محمد حسن آل ياسين هامش، ص٦٥.

هالة بدأت خديجة بالإنفاق على أولاد أختها وبعد وفاة أختها وزواج النبي من خديجة، أخذا بنات أخت خديجة ورباهن رسول الله(ص)، وكان ينسب للشخص الذي يتولى يتيماً ذلك اليتيم.

الرد على الافتراء الثالث

لو دققنا الأمر في الروايتين لوجدنهما منقولة من أشخاص يميلون إلى إعلاء شأن أم المؤمنين عائشة على غيرها وهم الزبيريين، أولهم عمّ الزبير بن العوام، مات سنة ستين وكان له مائة وعشرون سنة[١].

وذلك لأن الزبيرين لهم ميول قوي جداً إلى أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر، لكن الرواية الصحيحة أن خديجة بنت خويلد ولدت قبل هجوم أبرهة الحبشي على مكة بثلاثة أعوام أو عامين، أي كان عمرها عندما تزوجت رسول الله(ص) ثمانية وعشرين سنة. وقيل بل الرواية الصحيحة إنها ولدت في نفس العام أي أن عمرها خمسة وعشرون سنة كما نقل البيهقي من أنها رحمها الله قد توفيت وعمرها خمسون سنة على الأصح.

وبما أن خديجة عاشت خمسة وعشرين سنة مع رسول الله(ص) فالناتج هو خمسة وعشرون سنة عندما تزوجته.

وقال البعض بل تزوجت قبل البعثة بخمس سنين وماتت وعمرها خمسون، وهذا يؤيد قولنا الأول بأن عمرها خمسة عشرون سنة.

---

(١) رجال الطوسي، ص٣٨.

أما قولهم بأنها تزوجت وعمرها أربعين سنة فهذا الشيء لا يقبله العقل وذلك: فقد جاء في الاستيعاب أن فاطمة(ع) ولدت في سنة إحدى وأربعين من مولد النبي[١].

أي كان عمر خديجة ستة وخمسين سنة وأنجبت فاطمة والأخبار تقول أن خديجة توفيت وهي عمرها خمسون أو اثنان وخمسون سنة.

وبعضهم يقول ولدت فاطمة(ع) في سنة البعثة[٢] أي كان عمر خديجة خمسة وخمسون وذلك لإن سن الرسول في البعثة أربعين سنة والفرق بينهما خمسة عشر عاماً. وقيل ولدت في السنة الثانية من البعثة[٣]، وهو أشد من الأول والثاني لأنه يكون عمر خديجة سبعة وخمسون سنة.

أما نحن فنقول أنها عليها السلام قد ولدت في السنة الخامسة من البعثة النبوية الشريفة، وقد وافقنا على ما نذهب إليه في تاريخ ميلاد فاطمة(عليها السلام) جماعة، فقالوا: إن فاطمة وقد ولدت في السنة الخامسة من البعثة[٤].

وهذا لا يناسب مع ما ذكر سابقاً لأنه سوف يكون عمر خديجة عندما

---

(١) الاستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة)، ج٤، ص٣٧٣.

(٢) وهو مقتضى كلام العسقلاني في تهذيب التهذيب، ج٢، ص٤٤١، حيث قال: إنها تزوجت في السنة الثانية من الهجرة وعمرها خمسة عشر سنة وخمس أشهر ونصفاً.

(٣) البحار، ج٤٣، ص٩.

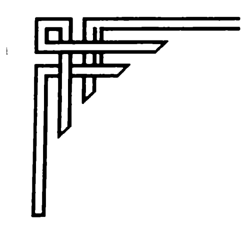
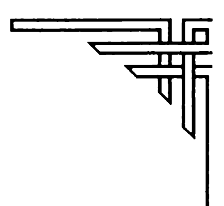
(٤) راجع المصادر التالية: البحار، ج٤٣، ص١-١٠ ؛ عن الكافي بسند صحيح، والمصباح الأكبر، ودلائل الإمامة.

أنجبت فاطمة ستون سنة، وبالأخص عندما يذكرون الرواة بأن فاطمة ليست أصغر أخواتها بل رقية هي الصغرى.

أي يكون عمر خديجة عندما أنجبت رقية إحدى وستون سنة، وهذا ينفي بأن المرأة لا تلد في ذلك السن هل هذا يعقل؟، فلينظر أصحاب العقول..

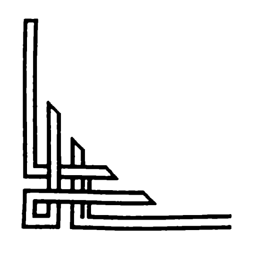
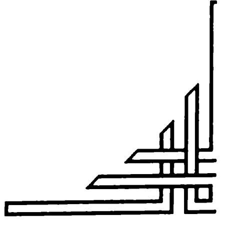
وهذا أيضاً دليل آخر على أن رقية ليست من خديجة(ع).

وأخيراً، الرواية الصحيحة هي أن عمرها كان ثمانية وعشرون سنة أو سبعة وعشرون سنة، أو خمسة وعشرون سنة، لأن ذلك يوافق الروايات والعقل والله أعلم.

الفصل الثالث

تجارة خديجة بنت خويلد
ولقاءها بالرسول الأكرم (ص)
ورحلة الشام الأولى والثانية

تجارة خديجة

قد ذكر المؤرخون وأرباب السير والتاريخ أن السيدة خديجة كانت ذات جاه عظيم ومال وفير. وكان وقتها معظمهُ مشغول في التجارة.

وذلك لأن هذا المال الكثير يجب استثماره في التجارة كباقي قومها من قريش، حيث كان الأساس والعمود الفقري لحياتهم التجارة، وقوام معاشهم الخروج بأموالهم ومتاجرهم في رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام كما ذكر القرآن الكريم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[1].

وكانت خديجة زاهدة في حياتها التي لا يدوم لها حال، ولا تبقي سعادة أنشأتها النفوس المطمئنة.

فكان والدها خويلد يواسيها في محنتها ويملأ عليها البيت، كما كانت أمها كذلك، فكانت خديجة متعلقة بأبيها أشد التعلق، وكم حاول الرجل وزوجه أن يسعدا فتاتهما، وأن يطمئنوا على مستقبلها بالزواج الذي كانت ترفضه، بدون أي سبب يعقل.

---

(١) سورة قريش، الآيات كاملة.

لكن قسمت الظهر عندما جاءها الخبر الأحزان يخبرها بوفاة أبيها خويلد، وخديجة منذ أن مات عنها أبوها وهي تجاهد في تلك الحياة وتقاسي مصاعبها لوحدها وإن كان في بعض الأوقات تستعين ببعض أقاربها.

وكانت أيضاً في مواجهة صعبة من جهة أخرى لأنها وجدت الكثير من رجال قريش وأشرافها يتقدمون الواحد تلوا الآخر لخطبتها، وكلهم كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، وقد طلبوها وبذلوا الأموال لها، لشرفها وجمالها ومالها وقابلت ذلك كله بالرفض والعزوف عن الزواج، وكأنها كانت قد استقبلت إلهاماً من الله عزّ وجلّ، أن ترد كل هؤلاء الذين جاءوا لخطبتها، وتعرض عنهم، لتتشرف بعد ذلك بالزواج من النبي(ص). وقد شغلت نفسها من كل هذا بالنظر إلى مالها، وقررت أن تستثمره وتنميه بالعدل والحلال وذلك من خلال مهنة التجارة التي دأبت قريش على ممارستها حتى انتظمت من أجل هذه المهنة رحلتين إحداهما تتجه صوب الشمال إلى بلاد الشام وسُمّيت برحلة الصيف، والأُخرى تتجه صوب الجنوب وسُمّيت برحلة الشتاء، كما ذكرنا الآية القرآنية السابقة.

ولعله هذه المهنة تُناسب الرجال دون النساء، فلم يكن في استطاعة خديجة أن تخرج على رأس تجارتها ومالها، ولكنها كانت تستعين

---

(١) سورة قريش، الآيات كاملة.

بالرجال لكي يعملوا في تجارتها فتأجرهم لهذا الغرض، وقد جاء في كتب السيرة أن خديجة كانت امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريشاً قوماً تجاراً[١].

والمضاربة المقصودة هنا عقدٌ بين خديجة صاحبة المال، والطرف الآخر الذي يقوم بالعمل على تجارتها، على أن يكون الربح بينهما، وهذه المضاربة نوع من التعامل أقره الإسلام بشروط معروفة.[٢]

وكانت خديجة إلى جانب عفتها وشرفها وطهارتها، امرأة ذات جلد وقوة وعزيمة فاستطاعت أن تحافظ على أصل مالها، وزادت عليه زيادة كبيرة.

وقد صرفت خديجة وقتها في تدبير شؤونها، بمشورة أخيها وبمعاونة بعض أقاربها، ووقفت حياتها لعمل البر وإغاثة الملهوف.

وقد قال عنها السُّهيلي: خديجة بنت خويلد تسمّى الطاهرة في الجاهلية والإسلام، وكانت تُسمى سيدة نساء قريش[٣]، وكانت خديجة تدعى في الجاهلية الطاهرة[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص١٧٠.

(٢) أنظر كتب الفقه الإسلامي.

(٣) أنظر الروض الأنف، ٢١٥/١.

(٤) أنظر الإستيعاب، ١٨١٧/٤ - الإصابة، ج٧/٦٠ - وأسد الغابة، ٧٨/٧.

وقد وصفها الذهبي رحمه الله فقال في سيره: «وهي ممَّن كمُل من النساء كانت عاقلة جليلة ديِّنة مصونة كريمة»[١].

وشُغلت خديجة سلام الله عليها بما شُغل به أهلُ مكَّة: فقريشٌ تُعِدُّ عِيرها للخروج في التجارة، في رحلة الشتاء والصيف كما ذكرنا، وتُعَدُّ خديجة أيضاً تجارتها التي تخرجها في رفقة قافلة قريش، مع أحد الرجال لكن أي رجل يكون ذلك الأجير؟، فخديجة(عليها السلام) تتخير أجيراً ماهراً أميناً لكي يخرج للإتجار في مالها.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي.

محمد(ص) قبل لقاءه بخديجة

يقول المؤرخون إن ولادة خاتم النبيين(ص) كانت بعد ثالث وستين ومائة وستة آلاف سنة، أعقبت هبوط آدم(ع)، وكانت في نفس السنة التي هاجم بها أبرهة الحبشي على مكة، وكانت وفاة آمنة(رضي الله عنها) سنة تسع وستين ومائة وستة آلاف، بعد أن أتمّ (ص) السادسة من عمره الشريف. فقد قدمت آمنة إلى عبد المطلب تسأله أن يأذن لها بالرحيل إلى المدينة حيث يسكن أخوالها من بني عديّ بن النجار، وأن تصحب معها ابنها محمداً(ص) كي يروه، فأذن لها، فحملته واتجهت إلى المدينة برفقة حاضنته أمّ أيمن، ونزلت في دار النابغة حيث دفن عبد الله أبو النبي(ص)، وهناك اجتمعت بأهلها، وبعد شهر قفلت راجعة إلى مكة، وفي الطريق إليها في الأبواء، وتقع بين مكّة والمدينة، ساءت صحتها وفارقت الحياة، ودفنت هناك، أمّا عن قبرها الذي يقوم في مكّة هذه الأيام فيقال إن جسدها المبارك قد نقل إلى مكة من الأبواء.

وبعد رحيل آمنة(رضي الله عنها) قفلت أم أيمن عائدة بمحمد(ص) إلى جدّه في مكة، حيث أخذه في كفالته، وعاش في كنفه، وكان لا يقرب خواناً أو يمدّ يده إلى طعام دونه، ويقال إن وسادة كانت تبسط لعبد المطلب يومياً في ظل الكعبة، فإذ خرج توسّدها، دون أن يجرؤ أحد من

عشيرته على فعل ذلك، بل كانوا يفترشون الأرض بعيداً عنها، أمّا محمد(ص) فكان إذا خرج إلى الكعبة توجّه إلى الوسادة رأساً، فيحتضنه جدّه ويقبّله ويقول: ما رأيت قبلة أطيب منه ولا جسداً ألين منه.

وفي السنة الحادية والسبعين بعد المائة وستة آلاف توفّي عبد المطّلب، بعد أن أكمل محمد(ص) الثامنة من عمره المبارك.

ويروى أنه لمّا أحسّ هذا الرجل الكبير بدنوّ أجله دعا إليه أبا طالب، وأوصاه برعاية محمد(ص)، ومشدّداً عليه أن يحافظ عليه وينصره باليد والمال واللسان، حتى يصبح سيّد قومه، ثم أخذ بيده يد أبي طالب وأخذ عليه عهداً بذلك، وعندها قال: الآن يهون عليّ الموت، ثم ضمّ محمداً(ص) إلى صدره وراح يبكي، وطلب إلى بناته أن يبكينه ويرثيه ليسمع رثاءه قبل موته، فراحت كلّ واحدة من بناته الست تنشده مرثيتها، وعلى هذا الوقع فارق الحياة، وله من العمر مائة وعشرون سنة، والروايات في مدحه كثيرة، ويروى أنه سيبعث يوم القيامة بحسن الملوك وسماء الأنبياء.

وفي كل ذلك كان (ص) متأملاً في تلك الدنيا وما يجري فيها وغارقاً في حياة التفكير مع قليل من العمل في رعي الغنم، ولكن هل هي الحياة التي بها يفتح الطريق؟ كلا ليست هذه الحياة التي تدر على صاحبها

الرزق أو تفتح أمامه أبواب اليسر والمال. إلاّ أنّ محمد غير ملتفت إلى ذلك ولا يهمهُ أي شيء ولا يُعنى به، فهو الزاهد العابد الذي لا يميل قلبه لحب الدنيا والمال والرغبة لهما. فكان (ص) لا يحتاج من الحياة إلى أكثر مما يقيم صُلبه، فهو القائل (ص): «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع».

أليس هو الذي عُرف عنه كل حياته حرصه على شظف العيش ودعوة الناس إلى الاستمتاع بخشونة الحياة؟، والذين يتوقدون إلى المال ويلهثون في طلبه إنما يبتغونه لإرضاء شهواتهم. لم يعرف محمد(ص) طوال حياته شيئاً منها. فالإنسان الذي فقد أباه وهو ما يزال جنيناً في بطن أمه، ثم ماتت أمه وهو في السادسة من عمره، ثم مات جده عبد المطلب وكان أشد تعلقاً به، ليس في حاجة إلى ثروة من المال يتمتع به. وكان عمّه أبو طالب الذي تولى رعايته بعد جده، كان رجلاً فقيراً كثير العيال لذلك رأي أن يجد لابن أخيه سبباً للرزق أوسع مما يجيئه من أصحاب الغنم وكان أبو طالب بطبعه برّاً عطوفاً، فشمل ابن أخيه بعطفه وتولاه برعياته، وأسبغ عليه من حنانه وحبّه،حتى بلغ مبلغ الشباب. وقضى الرسول(ص) فترة طفولته وصباه في منأى عن عبث الأطفال، وهذر الصبيان، فإذا شاء وشارك أقرانه في لعب فإنه يبتعد عن مشاكستهم وخصامهم، وإذا اجتمع هو وأترابه في مَجمَع لهوٍ كان بينهم العفيف الخفيف الظل المؤدب الخلوق. حتى أنه عليه أفضل

الصلاة والسلام وعلى آله الأطهار خطا نحو الشباب وقد اجتنب الهَزْلَ والعبث، معصوماً من زلاته ونزواته، فلم تعرف قريش يوماً عنه أنه مال مع غواية، أو لاَنَ لمغريات الشباب، وما كانوا يعبثون فيه من سهر في مجالس لهوهم وجنوحهم. لذلك فقد عُرِفَ أنه صاحب فضيلة سامية وخلق عظيم وأمانة هي صفة وصفوه بها مع صدق وسموه به.

كان محمد(ص) سامياً في عفته، مشهودٌ له في صدقه وأمانته فإذا كان سموه في العفة وشهادة أهل مكة له بالصدق والأمانة فلا عجب إذا ما اشتهر بينهم «بالصادق الأمين».

محمد(ص) منذ أن كان طفلاً إلى أن صار فتىً يافعاً وشاباً، كان سامياً في عفته، عَلماً في صدقه، مثالياً في أمانته.

وكان أبو طالب، رغم ما كان لقبيلته وأهله من بني هاشم من المجد والسؤدد ورغم ما كان لأبيه عبد المطلب من مكانه ومجد، إلاّ أنّه كان رجلاً قليل المال، يعمل في التجارة ليكسب رزقه ورزق أولادِهِ، ولكن فقره لم يمنعه من رعاية ابن أخيه محمد، ولم يمنعه أيضاً أن يكون سيداً من بني هاشم، مطاع بينهم، يكن له أهل مكة الاحترام والإجلال، في الوقت الذي ضعفت فيه رئاسة بني هاشم، وخاصة بعد وفاة عبد المطلب جَد النبي(ص).

وفي حدود موارده وإمكاناته رعى أبو طالب ابن أخيه محمداً(ص)،

وكان يراقب في إعجاب ودهشة ما يتدَّرج إليه الغلام من نمو سريع في الجسم، واتساع كبير في العقل، وتفتح ملحوظٍ في المدارك، حتى أصبح محمد الصغير والذي لم تتجاوز سنُّهُ الثانية عشرة، أصبح يجد في عمه أبي طالب الصديق الوفي، والصاحب المخلص، والناصح الأمين والرفيق المشير، صاحب الرأي الناضج، والفكر الثاقب، الذي تفوق في فكره على رجال عصره[١].

---

(١) أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، للأستاذ عبد المنعم الهاشمي.

رحلة الشام الأولى

ومن حنان أبي طالب ورعايته وحبه لابن أخيه، فقد أحب أبو طالب محمداً لحب عبد المطلب له، أحبه حتى كان يقدمه على أبنائه، وكان يجد فيه من الشجاعة والذكاء والبرّ وطيب النفس ما يزيده به تعلقاً. فكان رسول الله(ص) كأنه لم يفارق عبد المطَّلب، وكان عبدُ المطَّلب يُوصي به أبا طالب، وذلك لأن عبد الله أبا رسول الله(ص)، وأبا طالب أخوان لأب وأم، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم.

فكان أبو طالب هو الذي يلي أمرَ رسول الله(ص) بعد جدّه، فكان إليه ومعه، ويخاف عليه أكثر من خوفه على أبنائه ومما يؤكد ذلك قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزُّبير، أن أباه حدثه:

أن رجلاً من لهب كان عائفاً[1]، فكان إذا قَدِم مكَّة أتاه رجال قُرَيش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم. قال: فأتى به أبو طالب وهو غلام، مع من يأتيه، فنظر إلى رسول الله(ص)، ثم شغله عنه شيء، فلما فَرغ قال: الغلام عليّ به، فلمّا رأى أبو طالب حِرْصَه عليه غيَّبه عنه،

---

(١) العائف: الذي يتفرس في خلقة الإنسان فيخبر بما يؤول حاله إليه.

فجعل يقول: ويلكم، رُدُّوا عليّ الغلام الذي رأيت أنفاً، فوالله ليكونَنّ له شأن، قال: فانطلق أبو طالب[١].

وفي السنة الخامسة والسبعين والمائة بعد ستة آلاف، وكان قد مضى من عمره الشريف (ص) اثنتا عشرة سنة وشهران ويومان، عزم أبو طالب على السفر إلى الشام في تجارة ولم يفكر بأن يأخذ معه رسول الله(ص)، ويروى أن رسول الله(ص) تشبّث بزمام ناقته وقال: أي عمّ، لمن تتركني وأنا لا أب لي ولا أمّ؟، فبكى أبو طالب ورقّ له وقال: والله لأخرجنّ به معي، ولا يفارقني، ولا أفارقه أبداً، فخرج به معه فلما نزل الركبُ بُصرى[٢] من أرض الشام، وبهما راهب يقال له بحَيرى في صوْمعة له، وكان إليه عِلْمُ أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة منذ قطّ[٣] راهبٌ، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها فيما يزعمون، يتوارثونه كابراً عن كابر. فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى وكانوا كثيراً ما يمرّون به قبلَ ذلك فلا يكلِّمهم ولا يعْرض لهم حتى كان ذلك العام. فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون أنّه رأى رسول الله(ص)، وهو في صومعته، في الرَّكب حين أقبلوا، وغمامة تُظِلُّه من بين القوم. ثم أقبلوا فنزلوا في ظلّ شجرة قريباً منه. فنظر إلى الغمامة حين

---

(١) لسيرة النبوية، لابن هشام، ج١، ص٢١٦.

(٢) بصرى: مدينة حوران، فتحت صلحاً لخمس بقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة، وهي أول مدينة فتحت بالشام، وقد وردها (ص) مرتين. (راجع: شرح المواهب).

(٣) قط: أي الدهر.

أظلّت الشجرة، وتهصَّرت[١] أغصانُ الشجرة على رسول الله(ص) حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، ثم أرْسل إليهم، فقال: إني قد صنعتُ لكم طعاماً يا معشر قُريش، فأنا أحبُّ أن تحضُروا كلُّكم، صغيرُكم وكبيرُكم، وعبدُكم وحرّكم: فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إنّ لك لشأناً اليوم، فما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنّا نَمُرّ بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟، قال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنَّكم ضيفٌ، وقد أحببتُ أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم. فاجتمعوا إليه، وتخلَّف رسول الله(ص) من بين القوم، لحداثة سنّه، في رِحال القوم تحت الشجرة، فلما نظرَ بحيرى في القوم لم يرَ الصّفة التي يعرِفُ ويجدُ عنده، فقال: يا معشر قُريش لا يتخلفنّ أحدٌ منكم عن طعامي، قالوا له: يا بحيرى، ما تخلَّف عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيك إلا غلامٌ، وهو أحدثُ القوم سناً، فتخلَّف في رحالهم، فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضُر هذا الطعامَ معكم، فقال رجل من قُريش مع القوم، واللاّت والعزَّى، إن كان للؤمٌ بنا أن يتخلّف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه[٢] وأجلسه مع القوم. فلما رآه بحيرى جعل يلحظهُ لحظاً شديداً وينظرُ إلى أشياء من جسده، قد كان يجدُها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القومُ من طعامهم وتفرّقوا، قام إليه بحيرى، فقال (له): يا غلام، أسألك

(١) تهصرت: مالت وتدلت، وتقول: هصرت الغصن، وذلك إذا جذبته إليك حتى يميل.

(٢) احتضنه: أخذه من حضنه، أي مع جنبه.

بحقّ اللاّت والعزّى ألاّ أخبرتني عمَّا أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك، لأنه سمع قومه يحلفون بهما، ويقال إنه إنما سأله باللاّت والعزّى اختباراً وهو الأول. فقال له رسول الله(ص): لا تسألني باللاّت والعُزّى، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قط بغضهما، فقال له بحيرى: فبالله ألا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له: سلْني عمّا بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حالِه في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله(ص) يُخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم[1] النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

قال ابن هشام: وكان مثل أثر المحجم[1].

قال ابن إسحاق: فلما فرغ، أقبل على عمِّه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغُلام منك؟، قال: ابني، قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً، قال: فإنه ابنُ أخي، قال: فما فعل أبوه؟، قال: مات وأمه حُبْلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحْذر عليه يهودَ، فوالله لئن رأَوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغُنَّه شراً، فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم وهو نبيّ هذه الأمّة وسيخرج بالسيف، فأسْرع به إلى بلاده، أقول: في الأمر هنا اختلاف، فمن قائل

(١) قيل سمي بذلك لأنه من العلامات التي يعرفه بها علماء الكتب السابقة (راجع: شرح المواهب).

(٢) المحجم: الآلة، التي يحجم بها يعني أثر المحجمة القابضة على اللحم حتى يكون نائباً. وفي الخبر أنه كان حوله خيلان فيها شعرات سود، وأنه كان كالتفاحة، أو كبيضة الحمامة. عند نفض (غضرون) كتفه اليسرى. (راجع: شرح المواهب، والروض).

إن أبا طالب خرج به سريعاً حتى أقدمه مكة، وقائل إنه بعث به إلى مكة. وتابع هو سفره إلى الشام، والله هو العالم[١].

وعادت قافلة قريش إلى ديارها، بعد أن باعت واشترت، وعاد أبو طالب ومحمد (ص)، وكان أبو طالب لا ينسى ما قاله الراهبُ له فهو في تفكير متواصل بحديثه عن ابن أخيه، وهو في دهشة وعجب.

كان ذلك في سن الثانية عشرة حيث محمد الغلام الصغير القليل التجربة في الحياة. مرّت أيام وسنون على قصة الراهب، لكنها بقيت ساكنة في خاطر أبي طالب تتمثل له بين الحين والحين وهو يلاحظ محمد (ص) بعناية ما بعدها عناية، ويكلؤهُ برعاية ما بعدها رعاية.

أما محمد فقد عاد من الشام وهو يستعرض ما رأى من مشاهد، ويفكر فيما سمع من أحاديث وأقوال، ويتأمل فيما مرَّ به من أناسٍ وأقوامٍ يدينون بديانات متعددة، ويعبدون آلهة متعددة.

في هذه الرحلة وقعت عينا محمد على جمال الصحراء وفسحتها، وتعلقت بالنجوم اللاّمعة في سمائها الصافية البديعة، وجعل عليه الصلاة والسلام وعلى آله الطاهرين يمرُّ بمدين ووادي القرى وديار ثمود وتستمع أُذناه المرهفتان إلى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضيها وما فيه من أنباء الأولين.

---

(١) راجع: سيرة ابن هشام، ج١، ص٢١٧.

وفي هذه الرحلة وقف من جمال بلاد الشام عند الحدائق الغنّاء اليانعة التي أنسته حدائق الطائف وما يروى عنها، والتي تبدت له جنات إلى جانب جدْب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء فيما حول مكة.

وفي الشام كذلك عرف محمد(ص) أخبار الروم ونصرانيتهم، وسمع عن كتابهم، وسمع أيضاً عن العداوة التي كانت بين الفرس والروم وانتظار كل منهما فرصة سانحة للوقيعة بالآخر والقضاء عليه، وقد كان صراعهما ممتداً لزمن طويل والحرب بينهما سجال.

وبعد أن استعرض محمد(ص) كل هذا ساءَل نفسه قائلاً: مَنْ مِنْ هؤلاء النّاس وهذه الأقوام على خطأ؟.. ومن منهم على صواب؟، ولئن كان بعدُ في الثانية عشرة من عمره لقد كان له من عظمة الروح وذكاء القلب ورجحان العقل ودقة الملاحظة وقوة الذاكرة وما إلى ذلك من صفاتٍ حباهُ بها القدر تمهيداً للرسالة العظيمة التي أعَدّهُ لها ما جعله ينظر إلى ما حول نظرة فاحصة، فهي نظرة الفاحص المحقق، فلا يستريح إلى كل ما يسمع ويرى، فيرجع إلى نفسه يسائلها: أين الحق من ذلك كله؟.

واستغرق محمد الصغير السِّنِّ الكبير العقل، استغرق في التفكير والتأمل، يحاول أن يخرج من هذا التيه المُظْلم إلى نور المعرفة والهدى والحقّ. فهؤلاء قومه يُشركون في عبادة الله أصناماً، ويملئون بيت الله

أوثاناً، ويقصدون إلى الطواغيت يزورونها، ويطوفون بها، ويحجون إليها، كما يطوفون بالكعبة، وكما يُحجُّ سائرُ العرب إلى بيت الله..

لقد أبى محمد (ص) ورفض عبادة قومه وسجودهم للأصنام، وأنف من ذلك أنفة شديدة، ورفض أن يذكر أو يُقسِّم باللاّت والعزّى فما هنَّ إلا طاغوتان يقسمون بهما الكفار.

كان على يقين بأن قومه في ضلال بل عين الضلال والكُفر وحده. وكان يؤمن أنَّهم فيما يأتونَهُ مخطئون.

هكذا كان محمد وهو لم يبلغ الحلم، يفكر ويتأمل ويريد أن يصل إلى الحقيقة مهما كلفه الأمر، الحقيقة التي غطتها التربان وأصبحت غير مرئية فلم يبحث وينُقّب عنها إلا عددٍ معدود على أصابع اليد من الرجال. ابتعد محمد عن المجتمع، وأخذ بالتفكير والتأمل.

ومما ساعده على هذا التأمل والتفكير عملهُ برعي الغنم سِني صباه تلك، فقد كان يرعى غنم أهله، وكان يذكر رعْيه إياها مغتبطاً فيقول: «ما بعث الله نبياً إلاّ راعي غنم». ويقول: بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داوود وهو راعي غنم، وبعثت وأنا راعي غنم أهلي بأجياد».

وراعي الغنم الذكي الفؤاد العليم القلب يجد في فسحة الجو الطلق أثناء النهار وفي تلألؤ النجوم إذا جنّ الليل موضعاً لتفكيره وتأمله يسبح منه في هذه العوالم، يبتغي أن يرى ما وراءها، ويلتمس في مختلف

مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلْقه، وهو يرى نفسه، ما دام ذكي الفؤاد عليم القلب، بعض هذا الكون غير منفصل عنه، أليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه قضى.

وبالطبع مثل هكذا تفكير وتأمل يبعدا صاحبهما عن التفكير في شهوات الدنيا وزينتها والعلو به عنها بما يظهران له من كاذب زخرفها.

لذلك ارتفع محمد في أعماله وتصرفاته عن كل ما يمس هذا الاسم الذي أطلق عليه بمكة وبقي له: أنه «الصادق الأمين» صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين.

وبالطبع أن حياة التأمل والتفكير وما يستريح إليه من عمل بسيط كرعي الغنم، ليست بالحياة التي تدر على صاحبها أخلاف الرزق أو تفتح أمامه الأبواب المغلقة. وما كان محمد يهتم لذلك أو يتأثر به، وقد بقي طوال حياته أشد الناس زهداً في المادة ورغبة عنها. وما إقباله عليها وقد كان الزهد بعض طبعه؟..

ألم يكن هو الذي يدعو الناس إلى الاستمتاع بخشونة الحياة، وبعدهم عن اللّذة، لكي يستمتعوا بلذة الآخرة، أليس هو الذي كان يقول لهم اللّذة من الزهد. هذه هي جميع ما جرى له في رحلة الشام الأولى.

رحلة الشام الثانية...

بقيت عيون أبي طالب تتابع محمداً صبيّاً وشابّاً، وبقي قلبه خائفاً عليه، وكان حريصاً ويبعده عن كل ضرر أو أذى وبالأخص من اليهود، لأن حديث الراهب بحيرى بشأن ابن أخيه يتردد في ذهنه، إذ قال يحذره: احذر عليه اليهود.

ولكن إلى متى يبقى عيون أبي طالب تتابع محمداً والحياة في مكة تزداد قسوة بعد قسوة وهو يرى أن صنعت محمد لا توصله لما يريد، ولا يستطيع هو مساعدته فهو ليس من أصحاب الأموال فأبو طالب - إلى جانب سدانته للكعبة - يعمل في التجارة بين اليمن والشام، كما يعمل غيره من رجال قريش فأكثر أهل مكة بين خارج في مال له، أو أجير في مال غيره. فهنا فكر أبو طالب وأراد أن يجعل لمحمد نصيب كغيره من رجال قريش ساعياً وراء رزقه، لكنه يتردد خوفاً عليه من أيدي اليهود فحديث الراهب لا زال يدور في ذهنه.

وفي الوقت الذي كان فيه محمدٌ بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وكان ذكياً صاحب عقلية متفتحه، حكيم في أموره فهو لا يندفع كما يندفع غيره من الشباب، أراد أبو طالب أن يحدث محمداً في أمر من الأمور لكنه يتردد بين الحين والآخر وإذا به يقول له:

«يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتدّ الزمان - أي القحط - علينا، وألحت علينا - أي أقبلت ودامت - سنون منكرة- أي شديدة الجدب - وليس لنا مادة - أي ما يمدنا وما يقومنا - ولا تجارة وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها فيتجرون لها في مالها يصيبون منافع فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود ولكن لا تجد لك من ذلك بدا».

فقال رسول الله(ص) فلعلها أن ترسل إليّ في ذلك، فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك فتطلب أمراً مدبراً، فافترقا، فبلغ خديجة (رضي الله عنها) ما كان من محاورة عمه أبي طالب له، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا ثم أرسلت إليه(ص)[١].

- وفي رواية بعد أن أتم أبو طالب كلامه أجاب محمد(ص) في أدب جم: ما أحببت يا عمي؟؟.

مضى أبو طالب من فوره إلى خديجة بنت خويلد، وقال لها: هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً؟.

قالت خديجة مرحبةً بهذا العرض: لو سألت ذلك يا أبا طالب لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته للقريب الحبيب الأمين؟-[٢]

(١) السيرة الحلبية، ج٢، ص١٣٢.

(٢) أنظر سيرة ابن هشام، ج١.

فأرسلت خديجة إلى محمد تستدعيه للخروج في تجارتها، فقالت: «إني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أُعطي رجلاً من قومك»[١]. ففعل رسول الله(ص) ولقي عمه أبا طالب فذكر له ذلك فقال له: «إن هذا لرزق ساقه الله إليك». فخرج (ص) مع غلامها ميسرة أي يريد الشام وقالت خديجة لميسرة: لا تعص له أمراً ولا تخالف له رأياً وجعل عمومته يوصون به أهل العير وخرجوا لتوديع محمد جميعهم وأخذ أبو طالب يوصي ميسره به، وحين انطلقت القافلة جاءت غمامة فأظلتهُ (ص)، فلما قدم (ص) الشام نزل في سوق بصرى في ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا، فاطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت الشجرة، فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحزم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم قال له: أفي عينيه حمرة، قال ميسرة: نعم لا تفارقه، فقال الراهب: هو هو وهو آخر الأنبياء ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج - أي يبعث - فوعى ذلك ميسرة. وقال النيسابوري: فلما رأى الراهب الغمامة تظله (ص) فزع وقال: ما أنتم عليه - أي أي شيء أنتم عليه -، قال ميسرة غلام خديجة: فدنا إلى النبي(ص) سراً من ميسرة وقبل رأسه وقدمه وقال آمنت بك وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة، ثم قال: يا محمد قد عرفت فيك العلامات كلها - أي العلامات

(١) أنظر السيرة الحلبية، ج٣.

الدالة على نبوّتك - المذكورة في الكتب القديمة خلا خصلة واحدة فأوضح لي عن كتفك. فأوضح له فإذا هو بخاتم النبوّة يتلألأ، فأقبل عليه يقبله ويقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله النبي الأُميّ الذي بشر بك عيسى ابن مريم، فإنه قال لا ينزل بعدي تحت هذه الشجرة إلا النبي الأميّ الهاشميّ العربيّ المكيّ صاحب الحوض والشفاعة وصاحب لواء الحمد[١].

أقول: ولا يخفى أن بقاء تلك الشجرة هذا الزمن الطويل قبل عيسى وبعده إلى زمن نبيّنا (ص) على خلاف العادة، وصرف غير الأنبياء عن النزول تحت تلك الشجرة وكذا صرف الأنبياء الذين وجدوا بعد عيسى على ما تقدم عن النزول تحت تلك الشجرة بعد عيسى الذي دلت عليه الرواية ممكن وإن كانت الشجرة لا تبقى في العادة هذا الزمن الطويل ويبعد في العادة أن تكون شجرة تخلو عن أن ينزل تحتها أحد غير الأنبياء لأن هذا الأمر مع كونه ممكناً لكنه خارق للعادة.

أقول: الأنبياء لهم خرق العوائد سيما نبيّنا(ص)، وبهذا يرد قول السهيلي يريد ما نزل تحت هذه الشجرة الساعة إلا نبي ولم يرد ما نزل تحتها قط إلا نبي لبعد العهد بالأنبياء عليهم الصلوات والسلام قبل ذلك وإن كان في لفظ الخبر قط أي كما تقدم فقد تكلم بها على جهة التأكيد للنفي والشجرة لا تعمر في العادة هذا العمر الطويل حتى يدري

---

(١) السيرة الحلبية، ج٣.

أنه لم ينزل تحتها إلا عيسى أو غيره من الأنبياء ويبعد في العادة أيضاً أن تكون شجرة تخلو من أن ينزل تحتها أحد حتى يجيء نبي هذا كلامه، وقد يقال يجوز أن تكون تلك الشجرة كانت شجرة زيتون فقد ذكر أن شجرة الزيتون تعمر ثلاثة آلاف سنة على أن في بعض الروايات ونزل رسول الله(ص) تحت شجرة يابسة نخر عودها فلما اطمأن تحتها اخضرّت ونوّرت واعشوشب ما حولها وأينع ثمرها وتدلت أغصانها ترفرف على رسول الله(ص)، ولما رأى الراهب ما ذكر لم يتمالك الراهب أن انحدر من صومعته وقال له: باللاّت والعزّى ما اسمك، فقال له: إليك عنّي ثكلتك أُمّك، ومع ذلك الراهب رق مكتوب فجعل ينظر في ذلك الرّق، ثم قال: هو هو ومنزلة التوراة، فظن بعض القوم أن الراهب يريد بالنبي(ص) مكراً فانتضى سيفه وصاح: يا آل غالب، يا آل غالب فأقبل الناس يهرعون إليه من كل ناحية يقولون ما الذي راعك، فلما نظر الراهب إلى ذلك أقبل يسعى إلى صومعته فدخلها وأغلق عليه بابها ثم أشرف عليهم فقال: يا قوم ما الذي راعكم مني فوالذي رفع السموات بغير عمد أني لأجد في هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين(ص) يبعثه الله بالسيف المسلول وبالريح الأكبر وهو خاتم النبيين فمن أطاعه نجا ومن عصاه غوى. ثم حضر رسول الله(ص) سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى، وكان بينه(ص) وبين رجل اختلاف في سلعة فقال الرجل لرسول الله(ص): احلف باللاّت والعزى، فقال النبي(ص): ما حلفت بهما قط، فقال

الرجل: القول قولك، ثم قال الرجل لميسرة وقد خلا به: يا ميسرة هذا نبي والذي نفسي بيده أنه لهو الذي تجده أحبارنا منعوتاً، فوعى ميسرة ذلك. وقبل أن يصلوا إلى بصرى عيى بعيران لخديجة وتخلف معهما ميسرة وكان رسول الله(ص) في أول الركب فخاف ميسرة على نفسه وعلى البعيرين فانطلق يسعى إلى رسول الله(ص) فأخبره بذلك، فأقبل رسول الله(ص) إلى البعيرين فوضع يده على أخفافهما وعوّذهما فانطلقا في أوّل الركب ولهما رغاء، قال وفي الشرف أنهم باعوا متاعهم وربحوا ربحاً ما ربحوا مثله قط. قال ميسرة: يا محمد اتجرنا لخديجة أربعين سنة ما ربحنا ربحاً قط أكثر من هذا الربح على وجهك.

أقول: لا يخفى ما في قول ميسرة اتجرنا لخديجة أربعين سنة ولعلها مصحفة عن سفرات أو هو على المبالغة والله أعلم.

ثم انصرف أهل العير جميعاً راجعين مكة وكان ميسرة يرى ملكين يظللانه (ص) من الشمس وهو على بعيره إذا كانت الهاجرة واشتد الحر وهذا هو المعنى بقول الخصائص الصغرى وخص (ص) بأظلال الملائكة له في سفره ويحتمل أن المراد في كل سفر سافره لكن لم أقف على إظلال الملائكة له (ص) في غير هذه السفر وقد ألقى الله تعالى محبة رسول الله(ص) في قلب ميسرة فكان كأنه عبده، فلما كانوا بمر الظهران، وهو واد بين مكة وعسفان وهو الذي تسمّيه العامة بطن مرو وهو المعروف الآن بوادي فاطمة، قال ميسرة للنبي(ص): هل لك أن

تسبقني إلى خديجة فتخبرها بالذي جرى لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك، وفي رواية تخبرها بما صنع الله تعالى لها على وجهك، فركب النبي(ص) وتقدم حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة وخديجة في علية أي في غرفة مع نساء فرأت رسول الله(ص) حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظللان عليه فأرته نساءها فعجبن لذلك، ودخل عليها رسول الله(ص) فخبرها بما ربحوا وهو ضعف ما كانت تربح فسرّت وقالت أين ميسرة، قال: خلفته في البادية، قالت: عجل إليه ليعجل بالإقبال.

أقول: إنما أرادت أن تعلم أهو الذي رأت أم غيره.

فركب رسول الله(ص) وصعدت خديجة تنظر فرأته على الحالة الأولى فاستيقنت أنه هو فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت، فقال لها ميسرة: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام.

وإلى ذلك أشار السبكي في تائيته بقوله:

وميسرة قد عاين الملكين إذ

أظلاك لما سرت ثاني سفرة

وأخبرها ميسرة بقول الراهب نسطورا وقول الآخر الذي حالفه أي استحلفه في البيع وقصة البعيرين وحينئذ أعطت خديجة له (ص) ضعف ما سمته له وما سمته له ضعف ما كانت تعطيه لرجل من قومه

كما تقدّم[١]. وقول ميسرة له (ص) فيما تقدم لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك يدل على أنها سمت له بكرتين وكانت تسمى لغيره بكره.

وتقدم أنه (ص) من حين سيره أي من مكة صارت الغمامة تظله فإن كانت غير الملكين فالغمامة كانت تظله في الذهاب والملكان يظلانه في العود، ولعل عدم ذكر ميسرة لخديجة تظليل الغمامة له (ص) في ذهابه أنه لم يفطن لها وقيل أن الملكين هما الغمامة وفيه وقوع رؤية البشر غير نبيّنا (ص) للملائكة غير جبريل.

ولم نقف على اسم الرجل الذي حالفه أي استحلفه...

انصرف ميسرة بعد أن أفضى لسيدته خديجة بكل أخبار محمد التي جعلت خديجة في دوامة وفي تأمل وتفكر في أمر محمد فقد أعجبها وأدهشها كل ما حصل، وأخذها بما لديه من صدق وبلاغة وجمال حديث وعزّة نفس.

بدأت خديجة تسترجع الماضي فاسترجعت حديث ابن عمها ورقة بن نوفل، واسترجعت أيضاً ما قاله اليهودي يوم كانت مع صويحباتها يحتفلن بعيد لهن بالكعبة، والذي قال فيه عن قرب مبعث نبي من قريش يدعو إلى التوحيد بالله عزّ وجلّ. وفكرت خديجة في أن تطلع ورقة بن نوفل على جميع الأخبار التي أخبرها بها ميسرة عن محمد وما جرى

---

(١) السيرة الحلبية، ج٢، ص١٣٢.

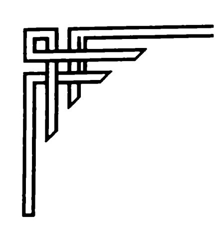
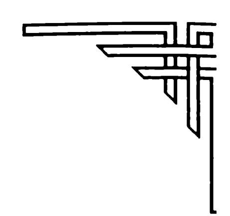
عليه في طريق الشام ذهاباً وعودة، لكي ينير لها ما حُجِبَ عنها، ويفتح لها الأبواب المقفلة، ويهديها إلى الطريق الصحيح.

فانطلقت إلى دار ابن عمها ورقة فقصت عليه كل ما سمعته، وصرحت له بما يشغل ذهنها وتفكيرها، وأعلمته بكل ما رأت وخُبِّرت عن محمد. واستمع ورقة بن نوفل إلى ابنة عمه خديجة باهتمام شديد، ولم ينكر شيئاً مما قالته عن محمد، بل أنه كان دقيقاً في قوله وردّه عليها حين قال:

«إن كان هذا حقاً يا خديجة، فإن محمداً نبي هذه الأمَّةِ، فلقد عرفتُ أنَّه كائن لهذه الأمة نبي منتظر، وهذا هو زمانه الذي يُبعث فيه».

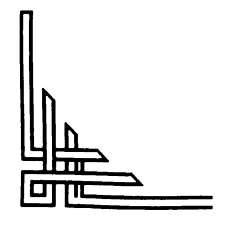
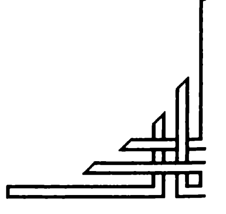
أطرقت خديجة لحظة، ثم انصرفت من أمام ابن عمها ورقة بن نوفل عائدة إلى دارها بنفسٍ هادئة مطمئنة، والسؤال الذي يلح على خاطرها هو: أيكون محمد نبيّ هذه الأُمة المنتظر كما يقول عنه ورقة بن نوفل؟.

هذا الذي شغل فكر خديجة بتصرفاته الجذابة بسمعته الصادق الأمين ببلاغته وفصاحته، بعطفه على الضعيف، بكراماته ومعاجزه... فأخذت بالتفكير كيف لها الارتباط بهذا الشاب... لنرى ذلك في الفصل القادم.

الفصل الرابع

زواج خديجة (عليها السلام) بالرسول (ص) وحياتها معه إلى البعثة

تزييف التأريخ

إن الطريقة التي خطب بها رسول الله(ص) خديجة(عليها السلام) توحي بأنها كانت عذراء وذلك لأنه من غير المعقول أن امرأة في مثل خديجة، تزوجت مرتين كما يزعم البعض وهي في المرة الثالثة يتقدم لخطبتها جماعة من بني هاشم من سادات قريش من بينهم الحمزة، والعباس بن عبد المطب، وفوق الجميع أبو طالب شيخ البطحاء يلقي خطاباً حاراً، في جلسة الافتتاح، ثم يتلوه خطاب الحمزة، وبعده يقف العباس بن عبد المطلب يلقي كلمة الوداع والشكر والختام، فمن غير المعقول أن يتقدم مثل هذا الرتل من الطراز الرفيع، من كبار الشخصيات مع كل هذه المقدمات والمؤخرات من أجل خطبة امرأة ثيب ذات بعول متعددة!!.

بل إن تقاليد المجتمع الجاهلي ترفض هذا اللون من العقد وتأباه ففي العادة إذا كانت المرأة متزوجه لمرة، أو مرتين، وهي في سن الأربعين كما يدعي البعض ولديها أولاد، وفي الثالثة تريد الزواج أيضاً، ففي العادة نقول يكون الزواج الثالث بعيداً عن كل مظاهر المراسيم الاجتماعية بل أغلب الأحيان، يتم في الخفاء، مكتفياً بإعلان الخطبة ليس أكثر من ذلك.

والخلاصة: إن الطريقة التي تم بها زواج السيدة خديجة التي سيتم ذكرها إن شاء الله، تقضي بكونها فتاة عذراء، كما دلت الروايات على ذلك.

ولكن قد يسأل سائل لماذا جاء في تاريخها أنها كانت قد تزوجت اثنين من المشركين حتى صارت مسألة من المسلمات في التاريخ؟.

نقول: إن تاريخ خديجة، تعرض للاغتيال أكثر من مرة وعلى أكثر من صيحة من قبل الأمويين تماماً كما تعرض تاريخ أبي طالب شيخ الإسلام وقمة الإيمان، لعملية نسف كاملة، أتت عليه من الجذور والأعماق، بحيث أصبح اسم أبي طالب في التاريخ ملازماً للكفر والشرك في حين أن أبا طالب يشكل قمة الإسلام، بل يمثل أعلى ذروة في الإيمان والجهاد وهو أمر واضح لكل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد..

وإذا رجعنا بقلوبنا إلى الإسلام، نجد أن هناك ثلاث دعائم كان يقف عليها الإسلام وهي دعامة المال المتمثلة بخديجة، ودعامة السلطة المتمثلة بأبي طالب وولده علي ودعامة العلم المتمثلة في النبي الأكرم(ص). وبالتحقيق نلاحظ أن الأشخاص الثلاثة، خديجة وأبا طالب والإمام علي(عليهم السلام) الذين كانوا يشكلون الدعامتين الأساسيتين في الإسلام، وحياة النبي(ص)، نراهم قد تعرضوا لعمليات تغيير وتزييف، ونسف تاريخي كامل كما هو واضح للمتأمل.. والله أعلم.

الزواج الموفق

بعد رحلة النبي(ص) الموفقة يدعي المؤرخون أن خديجة التي أكبرت في محمد نبله وصدقه وجميع صفاته وما حدثها به ميسرة من غرائب الأحداث التي حصلت له في طريقه باتت ليلتها تفكر في أمره وبما سيكون له من شأن في مستقبله القريب، وعادة تستعرض شمائله وسيرته الطيبة العطرة وتمنت لو أنها تصبح شريكة له.. لكن هل يستجيب ابن عبد الله مع شبابه الغض وفتوته الساحرة وصيته الذي ملأ القلوب والأسماع لعاطفة تلك المرأة مع أنه انصرف عن زهرات بني هاشم... وفيما هي في تلك الغمرة الهائجة من القلق والصور تتزاحم في نفسها، وإذ بنفيسة ابنة منبه إحدى صديقاتها تدخل عليها زائرة وعبثاً تحاول خديجة بنت خويلد أن تعود إلى طبيعتها، ولم يغب عن الزائرة ما في نفسها من القلق والاضطراب، فلم تتركها حتى كشفت لها عما في نفسها، فهونت عليها الأمر وتعهدت لها بأن تفاتحه في الزواج منها وتعمل على تحقيق أمنيتها الغالية التي كانت تنتظرها طول العمر، بكل ما أوتيت من خبرة ودهاء.

فقصدته وهو يخلو بنفسه وابتدأت حديثها معه تسأله عن أسباب عزوفه عن الزواج وقد تجاوز العشرين من عمره واصبح في أمسّ

الحاجة إلى امرأة يسكن إليها وتملأ دنياه بهجة وأنساً، فأمسك عن جوابها وتراكمت في نفسه صور عن مشاكل الزواج ويتمه وفقره واستمر في صمته وتفكيره ولكنها أعادت عليه الحديث لتسمع منه الجواب وأحرجته في أسلوبها وإلحاحها فابتسم وقال: والله ما بيدي شيء من المال لكي أتزوج به. وهنا وجدت نفيسة منفذاً للمصارحة، فردت عليه تقول: إذا دعيت إلى الجمال والشرف والمال والكفاءة ألا تجيب، تلك هي خديجة التي لا يساويها أحد من القريشيات والمكيات[1].

وجاء في تاريخ اليعقوبي عن عمار بن ياسر أنه قال: أنا أعلم الناس بزواج خديجة بنت خويلد من رسول الله، لقد كنت صديقاً له وإنا لنمشي يوماً بين الصفا والمروة وإذا بخديجة وأختها هالة معها، فلما رأت رسول الله جاءتني أختها هالة وقالت: يا عمار ما لصاحبك رغبة في خديجة؟، فقلت لها: والله لا أدري. فرجعت إليه وذكرت ذلك له، فقال لي: ارجع فواضعها وعدها يوماً نأتيها فيه، فلما كان ذلك اليوم أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ودهنت لحيته وألقت عليه حبرا، ثم حضر رسول الله في نفر من أعمامه يتقدمهم أبو طالب فخطب في الحاضرين وتم الزواج بينهما... وسيأتي ذكر الخطبة إن شاء الله وأضاف عمار بن ياسر إلى ذلك أنها لم تستأجره في تجارتها ولم يكن أجيراً لأحد أبداً، كما أورد حديث زواجه منها على هذا النحو ابن كثير في تاريخه بعد أن أورد الصورة الأولى الشائعة بين المحدثين.

---

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر، ج١، ص٤٩.

وقد جاء في تاريخ أبي الفداء أنه بعد أن رجع من الشام وحدثها ميسرة بما حدث له في طريقه تعرضت له مباشرة وخطبته لنفسها وتم الزواج بينهما على عشرين بكراً.

يقول بعض المحققين إن الرواية المرجحة هي رواية عمار بن ياسر. ومهما كانت الأسباب والملابسات التي اقترنت بهذا الزواج فمما لا شك فيه بأن زواجهما كان بناء لطلبها ورغبتها بعد أن ردت عن بابها الخطّاب من سادة قريش وأشراف مكة.

كانت خديجة جريئة، وموفقة حتى في زواجها من النبي الأكرم(ص) إذ أنها أعلنت للنبي حبها العظيم الطاهر، وخطبته قبل أن يخطبها هو، وهذا تماماً ما فعلت بنت النبي شعيب عندما خطبة موسى (ع) ليكون زوجاً لها في الحياة.

ومن هنا استطاعت خديجة بخطوتها هذه أن تفجر أكبر ثورة اجتماعية في عالم المرأة وتكسر الرقابة المملة في - حياة المرأة - آنذاك - فمن حق المرأة أن تختار الزوج الذي يشبع طموحها ويحقق نجاحها في الحياة.

وكان الزواج قد أثار سحابة من السخط، وعدم الرضى في أوساط النساء القريشيات من جهة، وخلق جواً من الهمز واللمز بين رجال القبيلة من جهة ثانية.

ويروي الشيخ الكليني وغيره أنه لمّا رغب رسول الله(ص) في أن يعقد له على خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)، توجه أبو طالب مع آله وجماعة من قريش إلى ورقة بن نوفل ابن عمّها - وقيل عمّ - خديجة، وخطب فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من نسل إبراهيم الخليل - وفي رواية من زرع إبراهيم وذريّة إسماعيل - وأخرجنا من سلالة إسماعيل وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً[١]، وجعلنا الحكام على الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن به، وجعلنا في حرمه، وأسبغ علينا نعمه، وصرف عنا شر نعمته، وساق إلينا الرزق من كل فج عميق، والحمدُ لله على ما أدلانا، وله الشكر على ما أعطانا، وما به حبانا وفضلنا على الأنام، وعصمنا عن الحرام، وأمرنا بالمقاربة والوصل، وذلك ليكثر منا النسل..

أما بعد: فإن ابن أخي محمداً، ممن لا يوازن به فتىً من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً[٢]، وفضلاً، وعقلاً، وإن كان في المال قل، فإنما المال ظلّ زائل[٣]، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك»[٤].[٥]

---

(١) جاء في رواية بعد (.. وحرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء).

(٢) جاء في رواية (ثم إن ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب لا يوزن برجل من قريش إلاّ رجح، ولا يقاس بأحد منهم إلاّ عظم عنه).

(٣) جاء في رواية (فإن المال رزق حائل).

(٤) وهناك تكملة في إحدى الروايات، وهي: (والصداق ما سألتم عنه من مالي).

(٥) راجع الخطبة في البحار، ٦٩/١٦، وكتاب الزهراء بنت محمد ص١٩، وكتاب تراجم سيدات النبوة لبنت الشاطي، ص٢٢٢.

وشفع قوله بالقسم بربّ البيت على أنّه سيكون ذا شأن رفيع، ومنزلة منيعة، وحظّ شامل، ودين شائع، ورأي كامل.

وكان ورقة ابن عمّ خديجة من القسيسين والعلماء، وكان عظيم الشأن، حاول الردّ على أبي طالب، فلم يسعفه الحال، وكان اضطرابه في الحديث جليّاً، فعجز عن الردّ برد حسن، ولما رأت خديجة هذه الحال، غالبت حياءها وقالت بلسان فصيح: «أي عمّ - ابن العمّ - وإنّك وإن كنت الأولى بالكلام في هذا المقام، غير أنّي بما اختاره الأولى، فقد زوجت نفسي منك يا محمد، وأما مهري فهو من مالي؛ هلمّ يا عمّ - يا ابن العمّ - فانحر ناقة لوليمة الزفاف.

فقال أبو طالب: أيها الناس، اشهدوا أن خديجة زوجت نفسها من محمد (ص) وأنها ضمنت مهرها.

فقال أحد القرشيين: عجباً، أن يضمن النساء مهورهن للرجال!.

فانتفض أبو طالب غاضباً، وكان إذا غضب هابت قريش غضبه، وحذرت من سطوته، ثم قال: لو كان الأزواج والآخرون مثل ابن أخي لطلبتهن النساء بأغلى القيم وأعلى المهور، ولو كانوا مثلكم لطلبن منهم مهراً غالياً.

وجاء في رواية إن عدد كبير من قريش أثنوا على محمد (ص). ثم إن أبا طالب نحر جزوراً للمناسبة، وتم عقد زفاف درّة الأنبياء على جوهرة

خير النساء، وجرى العقد بحضور الجميع، ولما انتهى العقد، نحرت الذبائح، وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء، فإذا بينهم «حليمة السعدية» قد جاءت من بادية بني سعد، لتشهد عرس ولدها الذي أرضعته، ثم لتعود في الغداة ومعها أربعون رأساً من الغنم، هبةً من العروس الكريمة لتلك التي أرضعت محمداً زوجها...»(١).

ولما دخلت خديجة (رضي الله عنها) في حبالة محمد (ص) أنشد عبد الله بن غنم، أحد القريشيين شعراً حمّله تهانيه فقال:

هنيئاً مريئاً يا خديجة قد جرت
لكِ الطيرُ فيما كان منكِ بأسعد

تزوّجت من خير البريّة كلّها
ومَن ذا الذي في الناس مثلُ محمد

به بشّر البرّان عيسى بن مريم
وموسى بن عمرانٍ فيا قرب موعد

أقرّت به الكتّاب قدماً بأنّه
رسول من البطحاء هادٍ ومهتد(٢)

وكان ذلك في السنة الثامنة والثمانين بعد المائة وستة آلاف، وكان(ص) قد أتمّ الخامسة والعشرين من عمره الشريف،

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة لبنت الشاطي، ص٢٢٢.

(٢) منتهى الأمال في تواريخ النبي والآل، ج١، ص٧٢.

وخديجة(رضوان الله عليها) أتمت الثامنة والعشرين من عمرها الشريف، أو الخامسة والعشرين.

قال الأستاذ كتاني في كتابه الزهراء: أن خمساً وعشرين سنة كانت مليئة بالحب والتفاني ذابت خديجة في حبها لزوجها وأخذت منه كل ما أعطاها وأعطته كل ما أخذ منها لقد كان الأخذ والعطاء بنسبة واحدة بدون أي شعور من الطرفين بأن الأخذ هو غير العطاء أو أن العطاء هو غير الأخذ. ومضى يقول: لقد أعطت خديجة زوجها حباً وهي لا تشعر بأنها تعطي، بل تأخذ منه حباً فيه كل سعادة، وأعطته ثروة وهي لا تشعر بأنها تعطي، بل تأخذ منه هداية تفوق كنوز الأرض وهو بدوره أعطاها حباً وتقديراً رفعها إلى أعلى مرتبة وهو لا يشعر بأنه قد أعطاها، بل قال ما قام الإسلام إلا بسيف عليّ ومال خديجة، وأعطاها مع ذلك عمره وزهرة شبابه ولم يتزوج بغيرها حتى غابت عن الوجود وهو لا يشعر بأنه أعطاها.

وكان يقول:

«لا والله ما أبدلني الله خيراً منها آمنت بي إذ كذّبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس».

حياة خديجة(ع) مع النبي(ص)

في بيت الزوجية

عاشت خديجة(ع) مع النبي(ص) حياة طيبة مملؤة بالحنان والعطف، وإذا بسّنة مرت على أهل مكة سنةً معسرةً مُجدبةً، أرهقت فقراءهم ونالت منهم، ولما كان أبو طالب رجلاً فقيراً رقيق الحال، وقد كثر عياله، بما جعله يعاني من ذلك عُسراً وشدَّةً، فقال رسول الله(ص) لعمّه العباس، وكان ميسور الحال، ويعد من أغنى بني هاشم: يا عباس، إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله... فقال العباس: نعم.

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له:

«إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله(ص) عليّاً فضمَّه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمّه إليه»(١).

وجاء في السيرة لابن هشام قال: (أنه كان من نعمة الله على عليّ بن أبي طالب، ومما صنع الله به، وأراد له من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طلب كثير العيال..)(٢).

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص٢٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ج١، ص٢٢.

لقد انضم إلى هذه العائلة النجم الساطع والفتى الأول وفتى الإسلام علي بن أبي طالب(ع)، فنشأ وترعرع في رعاية النبي(ص) وفي بيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد(ع).

أقول: أراد النبي(ص) بهذا أن يحمل عبئاً عن عمه أبي طالب(ع)، الذي حمل مسؤولية كفالته بعد وفاة جدّه عبد المطلب، فكان (ص) وفيّاً لأهله ونسبهِ وقرابته، كذلك كان عليّ(ع) وفيّا للإسلام ولرسوله(ص) ولنسبه من بني هاشم..

وبعد فترة جاءها ابن أخيها حكيم بن حزام زائراً لها فدعاها لزيارته فلما كانت هناك اصطحبت غلاماً جميلاً تبدو عليه آثارٌ من النعمة ورغد العيش فلما سألها محمد عمن يكون هذا الغلام؟.

قالت: وهبني إيّاه ابن أخي حكيم من رقيق أتى به معه من الشام.

قال محمد(ص): والله لأجد في وجهه عنصر الكرم، وأرى في ملامحه مخايل الذكاء.

وسأل الرسول(ص) الغلام، وهو يتأمّل وجهَهُ في عطف وحنانٍ: ما اسمك يا بني؟.

قال الفتى: اسمي زيدُ بن حارثة.

قال محمد لزوجته: يا خديجة، ألا وهبتني إيَّاه؟!.

«وقد جاء في ترجمة زيد أن خديجة لما رأت تعلق النبي(ص) بزيد وحبه له، وكان في مِلكها، وهبتهُ له(ص)، فكانت هي السبب فيما امتاز به زيد من السبق إلى الإسلام»[١].

فقالت خديجة: هو لك يا ابن العَمِّ.

فأعتق محمدٌ الغلام في الحال، وصيَّرهُ منه بمثابة الابن!...

وقصة زيد بن حارثة مسطورة في أكثر الكتب المعتبرة وغير المعتبرة من أراد فليراجع.

أصبحت خديجة بعد ذلك الأم الحنونة لعليّ وزيد، ليس لديها شيء إلا رعايتهما، والحفاظ على راحة زوجها، فهي تحبهما لحب محمد(ص) لهما فهو لهما كالأب بل أكثر من ذلك، وهما أيضاً أكرم أبناء وأبرُّ أبناء. وكانت خديجة توفر كل سبل الاطمئنان والخدمة لزوجها ليكون أسعد إنسان وهو معها، فهي كانت تتولى خدمته بنفسها، ولا تكلف أحداً غيرها على الرغم من كثرة أموالها كما ذكرنا سابقاً، ومما يؤكد ذلك ويدلُ عليه حديث أبي هريرة الذي يقول فيه: أتى جبرائيل النبي(ص) فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت، معها إناء في إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نَصَب»[٢].

---

(١) ترجمة زيد بن حارثة، في الإصابة، ج٧.

(٢) أخرجه البخاري.

وقال الرواة: أن محمداً دعاها إلى الإيمان، فأجابته، ولم تحوجه أن يصخب كما يصخب - الزوج - إذا تغضبت عليه حليلته، ولا أن ينصب، بل أزالت عنه كل نصب، وأنسته من وحشته وهوَّنت عليه كل مكروه، وأراحته بما لها من كل كد ونصب»[١].

وكانت أعين أبي طالب تتابع محمد حتى بعد زواجه فهو يود أن يسمع أخبار بيت ابن أخيه مفرحه، وزاد التتبع فأصبحت عيون أبي طالب تتابع خديجة أيضاً فهو يريد أن يعرف هل هي تعيش في سعادة أم شقاء، وقد روي في ذلك عن أنس أن النبي(ص) كان عند أبي طالب، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة، فأذن له، وبعث بعده جارية يقال لها نبعة فقال لها: انظري ما تقول خديجة له.

قالت نبعة: فرأيت عجباً، ما هو إلا أن سمعت به خديجة، فخرجت إلى الباب، فأخذت بيده، فضمتها إلى صدرها ونحرها، ثم قالت: بأبي وأمّي، والله ما أفعل هذا الشيء، ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سيبعث، فإن تكن هو فأعرف حقي ومنزلتي، وادع الإله الذي يبعثك لي، قالت: فقال لها: «والله لئن كنت أنا هو، قد اصطنعتِ عندي ما لا أضيعه أبداً»[٢].

وكان رسول الله(ص) يحبها حباً كبيراً، فهو لن يغضب عليها يوماً

---

(١) السهيل في الروض الأنف، ج١، ص٢٧٩، نقلاً عن كتاب أم المؤمنين خديجة بنت خويلد لأستاذ عبد المنعم الهاشمي.
(٢) فتح الباري، ج٧، ص١٣٤.

ولم يعلي عليها صوته أبداً، فكان رقيق حنون رفيق، كان يدعو للرفق فيقول: «ما كان الرفق في شيء إلاّ زانه».

وكان أغلب الأحيان يذكرها بالخير في حياتها وبعد وفاتها، بل أنه عندما صرح بحبه لها اعتبر هذا رزقاً رزقه الله فقال: «إني رزقت حبهاً»، وخطابه بهذه العبارة التي تدل على حبه لخديجة كان لفاطمة(ع) ابنته..

أما خديجة(ع) فلم تغضبه طيلة حياتها معه ولم تسمعه أي كلمة يتأذى منها (ص) فكانت تطيعه في جميع أموره وتخدمه خدمة يحلم بها كل رجل مع زوجته، فكانت له الأب إن حُرّم الأب، والأُم إن حُرّم الأُم والأخ إن حرّم الأخ والناصر إن حرّم النّاصر..

بعثة النبي(ص)

بعد مرور خمسة عشر عاماً من تاريخ زواجهما، الفريد من نوعه والذي كان وسيبقى حديث الناس، لأنه كان مثالاً للبذل والعطاء والصبر والتضحيات في سبيل المبدأ والعقيدة في أحلك الساعات وأقسى المراحل التي لا يقوى على تحملها إنسان.

بعد جميع هذه السنين التي أطل بعدها الزوج العظيم على الأربعين استقبل الزوجان ذلك الحدث الخطير لا في حياة تلك الأسرة الوادعة فحسب ولا في حياة قريش والعرب وحدهم، بل في حياة الإنسانية جمعاء، فقد تلقى الزوج العظيم رسالة السماء، إيذاناً بحياة جديدة شاقة مليئة بالاضطهاد والمتاعب والنضال المرير.

وفي الحق أن ذلك الحادث الذي نريد أن نمر عليه لنشير إلى دور تلك الزوجة الفاضلة فيه، هذا الحادث لم يكن مفاجئاً لمحمد بن عبد الله بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ولم يكن يستبعد أن ينتهي إلى شيء من تأملاته العميقة وتفكيره الطويل في خلواته بنفسه بعيداً عن الناس ليجد المناخ الملائم للتفكير والتأمل في الكون وتقلباته وما فيه من الكائنات، ويستشف أدق ما فيه من أسرار ليلمح من ورائها قوة عظمى خفية تدبر وفق نظام دقيق ونواميس منتظمة متناسقة.

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون وهو مع ذلك يستخف بقومه، ويستبشع منهم تقديس تلك الأصنام التي كدسوها حول الكعبة وقدموا لها القرابين وعبدوها من دون الله وهي لا تجلب لهم نفعاً ولا تدفع عنهم سوءاً.

لقد كانت مواقفه تلك توحي إليه أنه سينتهي إلى شيء، ويحس من خلالها أنه سيدنو من الحقيقة الكبرى وسينجلي له السر الأعظم، وظل يتابع مواقفه هذه وقد أشرف على الأربعين من عمره وألف الخلوة في غار حراء واستطابها، وما كانت خديجة وقد قاربت الثلاث والأربعين أو الأربعين من عمرها لتضيق بهذه الخلوات التي تحول بنيها وبينه في أكثر الأحيان، أو تحاول أن تعكر عليه صفو تأملاته، بل كانت تحوطه بالرعاية والهدوء ما دام في بيتها، فإذا انطلق إلى حراء ظلت عيناها تشخص إليه ولا تفكر بشيء سواه، وترسل إليه من يحرسه ويرعاه ولو من بعيد بدون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد عليه وحدته.

وهكذا كان يبدو على الزوج العظيم (ص) وكأنه مهيأ لاستقبال تلك الرسالة...[1]

والمعروف إن هناك رواية معينة ومشهورة لدى أبناء العامة وقد رويت هذه الحادثة في كتبهم ولكن هذه الرواية لا تخلوا من أشكال والرواية هي عن عائشة أنها قالت:

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر، لهاشم معروف الحسني، ج١.

«أول ما بدأ به رسول الله(ص) من الوحي الرؤية الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو - يعني ينفرد - بغار حراء الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود بذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود بمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاء الملك.. جبرائيل فقال اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

فقرأت ما قرأه الملك - وقد نُقِش في قلبي، وطُبع على صفحة فؤادي، فتركني الملك وانصرف-.

وهببت قائماً، وقد تملكني الفزع، وتولني الجزع، فأخذت التفت في أرجاء الغار فَزَعاً ورُعْباً أسأل نفسي: من الذي خاطبني؟!، من الذي أقرأني؟!.

وبينما أنا بوسط الجبل سمعت صوتاً يناديني: يا محمد! ورفعت رأسي، فرأيت الملك وقد تمثل لي في صورة رجل يناديني: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبرائيل.

---

(١) سورة العلق، الآيات: من ١-٥.

فزاد رعبي، واشتدّ عليَّ الفزع، ووقّفني الهلع، فلم أجد لنفسي مهرباً، فجعلت أدير رأسي يمنَةً ويسرة، أحاول أن أصرف عن ناظري صورة هذا الشخص الذي أمامي، ولكن كنت أراهُ أينما وليّتُ وجهي، وحيثما حولتُهُ.

فرجع بها رسول الله(ص) يرجف فؤاده فدخل إلى خديجة بنت خويلد فقال: زملوني زملوني - أي لفوني - فزملوه، حتى ذهب عنه الروع.

فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي.

فقالت خديجة: «أبشر يا بن العم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً، وأنك لتصل الرَّحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكلَّ، وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الحق».

وما إن اطمأنت خديجة إلى سكينة محمد(ص) وهدوئه وخلوده للراحة والنوم، حتى نهضت من فورها، وقصدت ابن عمها ورقة بن نوفل فحدثته بما حَدَّثها به محمدٌ، فما سمع منها ورقة ما قالت حتى قال بفرحٍ: قُدوسٌ! قدوسٌ! أي طاهرٌ، طاهرٌ.

والذي نفس ورقة بيده لئن كنتِ صدقْتيني يا خديجة لقد جاءهُ الناموس الأكبر الذي كان يأتي مُوسى، وإنّه لنبيُّ هذه الأُمَّةِ، فقولي له: فليثبت[١].

---

(١) سيرة ابن هشام، ج١.

وفي بعض الروايات قيل إن النبي(ص) كان قد ذهب إلى ورقة مع صاحبه أبي بكر الصديق، قبل هذه المرة أيضاً، ففيها أن النبي(ص) قال للسيدة خديجة(رضي الله عنها): إني إذا خلوت وحدي أرى ضوءاً وأسمع نداءً: يا محمد أنا جبرائيل، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمْراً، فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل هذا بك إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحمة وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل، فإنّه رجل يقرأ الكتب، فيذكر له ما يسمع، فانطلقا، فقصا عليه، فقال: إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلفي: يا محمد أنا جبرائيل، فانطلق هارباً، فقال ورقة: سُبّوح، سُبوح، وما لجبرائيل يذكر في هذه الأرض التي يعبد فيها الأوثان، جبرائيل أمين الله تعالى على وحيه بينه وبين رسله، لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فاخبرني»[1].

وجاء في البخاري: إن السيدة خديجة انطلقت به إلى ورقة بن نوفل ابن أسد بن العزى ابن عم خديجة وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة:

يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيه جَذَعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومَك.

---

(١) سبل الهدى والرشاد، ٢/٢١٣.

فقال(ص): «أو مخرجي هم»؟، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني قومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحي[١].

نقول فمن هذا المنطلق لنا عدة ملاحظات:

الخطوة الأولى:

أن نفهم بعض الألفاظ الواردة في هذه الأحاديث وأهمها اثنان:

أحدهما: قوله: فأدخلني فغطني، يمكن أن يكون من الغط في الماء، وهو الدخول فيه، يعني أدخلني جبرائيل(ع) في الماء حتى بلغ مني الجهد. ولكن من أين جاء هذا الماء وهي صحراء لا يوجد فيها ماء. ويمكن أن يكون من الغطاء وهو ينتج الظلمة فقد أدخله في الظلام حتى بلغ منه الجهد، ويمكن أن يكون من الغطيط وهو شخير النائم، يعني أكمه حتى جعله يغط كغطيط النائم حتى بلغ منه الجهد ويمكن أن يكون مجازاً من العصر والضغط أي ضغطني حتى بلغ مني الجهد والظاهر أن هذا المعنى هو الأشهر.

وعلى أي حال فاللفظ هذا يفيد معنى الانزعاج والإيلام وهو حسب السياق في الرواية يأتي كعقوبة على رفض النبي(ص) أن يقرأ

---

(١) اللفظ للبخاري والحديث متفق عليه.

واعتذاره، كقوله ما أنا بقارئ، يعني أنا لا أعرف القراءة ولم أتدرب عليها، فإنه (ص) كان أمياً بحسب ظاهر المجتمع طول حياته لم يقرأ ولم يكتب.

ويمكن أن تكون الفاء أصلية، وليست عاطفة، ونقرأه فغطني من فغط يفغط، إلا أننا بحثنا عن المعنى اللغوي في المصادر المتيسرة لهذه الكلمة لم نجده، على أنه يحتاج السياق إلى فاءً أخرى، تكون عاطفة قبلها، بأن يقول ففغطني وليس في الحديث ذلك.

ثانيهما: قوله: زملوني فزملوه، أي لفوني بالغطاء، أو غطوني به، كان يشعر أن الرعدة التي أخذته تشبه رعدة البرد، وقوله ثم أرسلني، يعني أطلق سراحه من تلك الحالة الأليمة.

الخطوة الثانية:

أنه من الواضح من الحديث أن اقرأ باسم ربك الذي خلق نزلت قبل البسملة أو بدون البسملة لأنه بدا بقوله اقرأ باسم ربك الذي خلق فالظاهر من الحديث أن اقرأ باسم ربك الذي خلق نزلت قبل البسملة أو نزلت بدون البسملة وهو غير محتمل، وخاصة ونحن نعتقد في مذهبنا بأن البسملة جزء من هذه السورة كما هي جزء من كل سورة غير سورة براءة.

الخطوة الثالثة:

أنه لم يظهر من الحديث السبب في هذا الانزعاج والإيلام الذي حصل ثلاث مرات على رسول الله(ص) فإنه كان صادقاً فيما يقول،ما أنا بقارئ فهو ليس بكاذب لكي يعاقب، فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عدم صدق الحديث نفسه، فنقول أليس كان بإمكان جبرائيل(ع) أن يقول لأول مرّة اقرأ باسم ربك الذي خلق كما قال في المرة الثالثة، ولا يحصل كل هذا الإزعاج.

الخطوة الرابعة:

إننا إذا تنزلنا وقبلنا أنه يستحق العقوبة وحاشاه، فكان يمكن الاقتصار على عقوبة خفيفة أو تنبيه بسيط وليس إلى هذه الدرجة من الإزعاج بحيث يقول حتى بلغ مني الجهد، ويحصل ذلك ثلاث مرات.

الخطوة الخامسة:

إن الملك لم يأتِ بورقة أو كتابه يطلب من النبي(ص) أن يقرأها، إذن ليس هناك أي طلب للقراءة لكي يعتبر أن النبي ليس بقارئ لكي يعاقبه الملك على ذلك، بل من الواضح أن المراد بالقراءة في هذا المورد هو مجرد التلفظ أو القول بمعنى قل كما أقول.

والمفروض أن النبي(ص) يسمع ويمكنه أن يعيد نفس الكلام بدون

هذه المضاعفات، كما أن المفروض أن النبي(ص) بوعيه وعلو مستواه يفهم هذا المعنى وعدم وجود مورد للاعتذار فكيف يكون اعتذاره مفهوماً، فهذا يشكل نقطة ضعف في الحديث.

ولو فسر من قوله ما أنا بقارئ، يعني لا أستطيع أن أردد معك هذه الألفاظ لكان كاذباً وحاشاه.

ولو تنزلنا وقبلنا أن النبي(ص) لم يفهم ذلك فكان الأنسب والأولى للملك أن يفهمه ذلك، أو يبدل تعبيره بما يؤدي المعنى المطلوب، لا أن يعاقبه ثلاث مرات.

الخطوة السادسة:

أنه بعد أن علم النبي(ص) أن هذا الملك مقرب وعلم قدسيته فلماذا يعصيه ويصر ثلاث مرات على عصيانه وكأنه لو استمر الحال على ذلك لعصره مائة مرة أو ألف مرة مع العلم أنه يعلم أنه ملك مقرب وأنه أمره حق ومن أمر الله جل جلاله، إذن فسوف يعصي أمر الله تعالى وحاشا رسول الله(ص) ذلك.

الخطوة السابعة:

أننا نتساءل هل أن النبي(ص) أكثر فهماً أم خديجة بنت خويلد مع مالها من المكانة العالية فهي أم المؤمنين(ع)، أم ورقة بن نوفل؟.

لا شكّ أن النبي(ص) خير الخلق وأعظم الخلق وأفهمهم، ولا ينبغي أن يختلف في ذلك اثنان فكيف يكون هو الجاهل بتفسير هذه الحادثة كما هو منطوق الحديث ويكون العلم لدى غيره بحيث يتوقف الأمر على إخبار ورقة بن نوفل.

الخطوة الثامنة:

أنه ينبغي أن يكون واضحاً من الحديث أن النبي(ص) ساعتئذٍ لم يعلم أن هذا ملك وأن هذا قرآن وإنما للفظ الراوي وهو عائشة، أو بإخبار ورقة بن نوفل ومثل هذا الوضع والجهل غير محتمل على رسول الله(ص) كما هو واضح.

الخطوة التاسعة:

أن المفروض بالنبي(ص) أن يعلم حقيقة الملك الذي أرسل إليه، وكون موقفه حقاً، وهو مرسل من الله تعالى فإذا كان ذلك إذن فسوف يعرف إن ما فعله الملك حسب منطوق الخبر حق أيضاً فلا يخشى منه ولا يعترض عليه ولا أن ينهار نفسياً منه.

الخطوة العاشرة:

إن رسول الله(ص) ظهر في هذا الحديث وحاشاه جباناً محباً للحياة الدنيا جداً، بعيداً عن تحمل المشاق وحاشاه من كل ذلك وهذا واضح من

عدة فقرات من الحديث، كقوله فغطني حتى بلغ مني الجهد، وقوله فرجع رسول الله(ص) يرجف فؤاده وقوله لخديجة بنت خويلد لقد خشيت على نفسي مع أننا على يقين أنه أعلم وأقوى من جبرائيل نفسه حتى أنه في المعراج قال له جبرائيل ما مضمونه: «تقدم وحدك لو تقدمت أنمله لاحترقت، فتقدم النبي(ص) وحده حتى وصل إلى قاب قوسين أو أدنى».

فهلا استعمل النبي(ص) شيئاً من هذه القوة في رفع أو دفع هذا الإزعاج والبلاء عن نفسه أو بتحمله للبلاء، بحيث لا يبلغ منه الجهد في هذه السهولة.

إذن فهذا الحديث مردود حتى لو قبلنا صحة سنده، وهو بالتأكيد ليس بصحيح السند، وإنما إننا نختصر على ما هو حق، ونرفض ما هو باطل، وإنما إلا، باختصار هو نزول الوحي عليه وإرساله برسالة الإسلام لأول مرة في غار حراء بالآيات الأولى من سورة العلق، بما فيها البسملة المحذوفة من الحديث والنبي(ص) تلقاها بعمق وسعة صدر وبشجاعة وتفهم وعلم لكونه مخاطباً من الله تعالى بطريق جبرائيل(ع) وأنه رسول الله(ص) من دون الحاجة إلى هذه التفاصيل المؤسفة ثم عاد إلى الدار وأخبر خديجة وكانت أول من آمن من النساء وبعدها أول من آمن من الرجال علي بن أبي طالب فكانت لهما درجة السبق في الإسلام...

إسلام خديجة...

من المشهور بأن أول من أخبرهُ النبي(ص) بنزول الوحي هي خديجة بنت خويلد بل أجمع المؤرخون على أن أول من تقلد الإسلام وأسلم من النساء هي السيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، فبعد أن أنزل الوحي على الرسول الأعظم(ص)، جاء وقصّ ما شاهده على زوجته، فأسلمت خديجة وناصرت الرسول(ص)، حتى عُدّ نصرها له أحد الدعائم التي قام عليها الإسلام إضافة إلى سيف علي(ع) ودعم أبي طالب شيخ الأباطح...

وروى أبو يحيى بن عفيف، عن أبيه، عن جده عفيف قال: جئتُ في الجاهلية إلى مكّة وأنا أريد أن ابتاع لأهلي من ثيابها وعطرها، فأتيتُ العباس بن عبد المطلب وكان رجلاً تاجراً، فأنا عنده جالس حيث أنظر إلى الكعبة وقد حلّقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت، إذ جاء شاب فرمى ببصره إلى السماء ثم قام مستقبل القبلة، ثم لم ألبث إلاّ يسيراً حتى جاء غلام فقام عن يمينه، ثم لم ألبث إلاّ يسيراً حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة، فسجد الشاب فسجد الغلام والمرأة.

فقلتُ: يا عباس أمر عظيم!.

قال العباس: أمر عظيم، أتدري مَن هذا الشاب؟.

قلت: لا.

قال: هذا محمد بن عبد الله، ابن أخي، أتدري مَن هذا الغلام؟، هذا علي ابن أخي، أتدري مَن هذه المرأة؟، هذه خديجة بنت خويلد زوجته، إنّ ابن أخي هذا أخبرني أن ربّه ربّ السماء والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، ولا والله ما على الأرض كلّها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة[١].

يتبين من هذه الرواية أنه لم يؤمن أحد بدين الإسلام غير علي وخديجة فهو أول رجل أسلم بين الرجال وهي أول امرأة أسلمت من بين النساء...

---

(١) خصائص أمير المؤمنين(ع)، ص٤٥.

نضال خديجة(ع) مع النبي(ص)

من العوامل الأساسية التي تقوّى بها الإسلام - كما قلنا - هي أموال خديجة بنت خويلد، فمنذ اليوم الأول لنزول الوحي على نبيّنا محمد(ص) نرى خديجة تسارع لاعتناق الدين الحنيف، وتقف إلى جنب زوجها موقف المدافع والمحامي وتضع كل أموالها في تصرّفه نصرة للرسالة الجديدة، إضافة إلى ذلك كلّه كانت خديجة بنت خويلد المأوى والملجأ، والقطب الحنون الذي يلجأ إليه النبي(ص) حينما تضايقه قريش، ويتعرّض للأذى من قبل أعداء الله تعالى: فكان يشكو لها همّه، وما يلاقي من قومه، وكانت هي في مقابل ذلك تُحيطه بحنان قلبها الكبير، وتخفّف عن آلامه وأتعابه، وتقف موقف المشجّع والمثبّت له.

وقد ثبّت المؤرخون مواقفها البطولية في كتبهم، نذكر بعضها تعميماً للفائدة:

(١) قال ابن حجر العسقلاني: ومن مزايا خديجة أنّها ما زالت تعظّم النبي(ص)، وتصدّق حديثه قبل البعثة وبعدها... ومن طواعيتها له قبل البعثة: أنّها رأت ميله إلى زيد بن حارثة بعد أن صار في ملكها، فوهبته له (ص)، فكانت هي السبب فيما امتاز به زيد من السبق إلى الإسلام[١].

---

(١) الإصابة، ٤: ٢٧٥.

(٢) قال ابن إسحاق: وكانت خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله، وصدّقت بما جاء به، فخفّف الله بذلك عن رسوله(ص)، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه إلاّ فرّج الله عنه بها، إذا رجع إليها تثبّته، وتخفّف عنه وتصدّقه، وتهوّن عليه أمر الناس (رضي الله عنها)[١].

(٣) قالت خديجة لابن عمها ورقة بن نوفل: أعلن بأنّ جميع ما تحت يدي من مال وعبيد فقد وهبته لمحمّد يتصرّف فيه كيف يشاء، فوقف ورقة بين زمزم والمقام ونادى بأعلى صوته: يا معاشر العرب إنّ خديجة تشهدكم على أنّها وهبت لمحمّد نفسها ومالها وعبيدها وجميع ما تملكه يمينها، إجلالاً له وإعظاماً لمقامه ورغبة فيه. وأنفذت إلى أبي طالب غنماً كثيراً ودنانير ودراهم وثياباً وطيباً ليعمل الوليمة، وأقام أبو طالب لأهل مكّة وليمة عظيمة ثلاثة أيام حضرها الحاضر والبادي[٢].

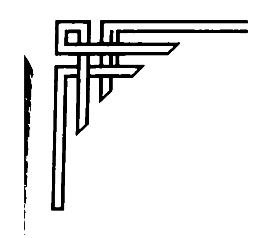
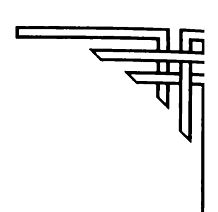
(٤) قال الزهري: بلغنا أنّ خديجة أنفقت على رسول الله(ص) أربعين ألفاً وأربعين ألفاً[٣].

---

(١) أسد الغابة، ٥: ٤٣٧.

(٢) وفاة الزهراء(ع)، للمقرّم، ص٧.

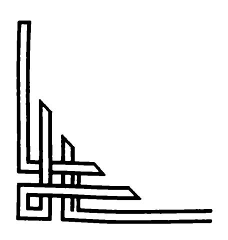
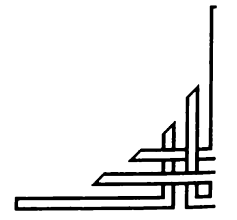
(٣) تذكرة الخواص، ص٣١٤.

الفصل الخامس

❖ ولادة الزهراء(ع)

❖ ووفاة خديجة(ع)

خديجة وفاطمة

قال المجلسي في البحار: «إن فاطمة(ع) ولدت بعدما أظهر الله نبوة أبيها (ص) بخمس سنين وقريش تبني البيت[١]. وروي أنها ولدت (ع) في جمادي الآخرة يوم العشرين منه، سنة خمس وأربعين من مولد النبي(ص).

وفي المناقب روي أن فاطمة(ع) ولدت بمكة بعد المبعث بخمس سنين، وبعد الأسرى بثلاث سنين في العشرين من جمادى الآخرة، وولدت الحسن(ع) ولها اثنتا عشرة سنة. وقيل إحدى عشرة سنة بعد الهجرة[٢]، وكان بين ولادتها الحسن وبين حملها بالحسين(ع) خمسون يوماً.

وروي أنها ولدت خمس سنين قبل ظهور الرسالة ونزول الوحي، وقيل: بينما النبي(ص) جالس بالأبطح ومعه عمار بن ياسر، والمنذر بن الضحضاح، وأبو بكر، وعمر، وعلي بن أبي طالب(ع)، والعباس بن عبد المطلب، وحمزة بن عبد المطلب إذ هبط عليه جبرائيل(ع) في صورته العظمى، قد نشر أجنحته حتى أخذت من المشرق إلى المغرب، فناداه: يا

---

(١) إن بناء البيت كان قبل مبعثه(ص) نعم ذكر ذلك أيضاً ابن الخشاب في كتابه.

(٢) أي وقيل: ولدت الحسن بعد الهجرة، ولها إحدى عشرة سنة.

محمد، العلي الأعلى يقرأ عليك السلام، وهو يأمرك أن تعتزل عن خديجة أربعين صباحاً، فشقّ ذلك على النبي(ص) وكان محبّاً لها، بها وامقاً، قال: فأقام النبي(ص) أربعين يوماً يصوم النهار ويقوم الليل، فجعلت خديجة تحزن في كلّ يوم مراراً لفقد رسول الله، فبعث بعمّار بن ياسر وقال: قل لها يا خديجة لا تظنّي أنّ انقطاعي عنك هجرة ولا قلى[١]، ولكن ربّي عزّ وجلّ أمرني بذلك لينفذ أمره، فلا تظنّي يا خديجة إلاّ خيراً، فإن الله عزّ وجلّ ليباهي بك كرام ملائكته كلّ يوم مراراً، فإذا جنّك[٢] الليل فأجيفي[٣] الباب، وخذي مضجعك من فراشك، فإنّي في منزل فاطمة بنت أسد (رضي الله عنها).

فلمّا كان في كمال الأربعين هبط جبرائيل(ع) فقال: يا محمد، العليّ الأعلى يقرئك السلام، وهو يأمرك أن تتأهبّ لتحيّته وتحفته، قال النبي(ص): يا جبرائيل وما تحفة رب العالمين؟، قال: لا علم لي، قال: فبينا النبي(ص) كذلك إذ هبط ميكائيل ومعه طبق مغطّى بمنديل من سندس، فوضعه بين يدي النبي(ص)، وقال: يا محمد، يأمرك ربّك أن تجعل الليلة إفطارك على هذا الطعام.

قال عليّ بن أبي طالب(ع): كان النبي(ص) إذا أراد أن يفطر أمرني أن أفتح الباب لمن يرد إلى الإفطار، فلمّا كان في تلك الليلة أقعدني

---

(١) القلى: البغض.

(٢) جنّ: ستر وأخفى، والمراد: أظلم.

(٣) أجيفي الباب: ردّيه.

النبي(ص) على باب المنزل وقال: يا ابن أبي طالب، إنّه طعام محرّم إلاّ عليّ، قال عليّ(ع): فجلست على الباب، وخلا النبيّ(ص) بالطعام، وكشف الطبق فإذا عذق[١] من رطب وعنقود من عنب(وإبريق ماء) فأكل النبي(ص) منه شبعاً، وشرب من الماء ريّاً، ومدّ يده للغسل، فأفاض الماء عليه جبرائيل، وغسل يده ميكائيل، وتمندله[٢] إسرافيل(عليهم السلام) فارتفع فاضل الطعام مع الإناء إلى السماء.

ثمّ قام النبي(ص) ليصلّي، فأقبل عليه جبرائيل فقال: الصلاة محرّمة[٣] عليك في وقتك، حتّى تأتي إلى منزل خديجة فتواقعها، فإن الله عزّ وجلّ آلى[٤] على نفسه أن يخلق من صلبك في هذه الليلة ذرّية طيّبة.

فوثب النبي(ص) إلى منزل خديجة، قالت خديجة(رضوان الله عليها): وكنت قد ألفت الوحدة، فكان إذا جنّني الليل غطّيت رأسي، وأسجفت ستري[٥]، وغلّقت بابي، وصلّيت وردي[٦]،وأطفأت مصباحي، وأويت إلى فراشي، فلمّا كان في تلك الليلة لم أكن بالنائمة ولا بالمنتبهة، إذ جاء النبي(ص) فقرع الباب، فناديت: من هذا الذي يقرع حلقة لا يقرعها

---

(١) العذق بالكسر: عنقود العنب والرطب.

(٢) تمندله: أعطاه المنديل.

(٣) الظاهر أنها الصلاة النافلة دون الفريضة، فقد كان دأب النبي والإمام تقديمها على الإفطار.

(٤) أي حلف.

(٥) قال الجوهري: أسجفت الستر: أرسلته.

(٦) الورد: الصلاة، أو الجزء من القرآن يقوم به الإنسان كل ليلة.

إلا محمد(ص)؟، قالت خديجة: فنادى النبي(ص) بعذوبة صوته وحلاوة منطقه: افتحي يا خديجة فإني محمد، قالت خديجة: فقمت فرحة مستبشرة بالنبي(ص) وفتحت الباب، ودخل النبي(ص) المنزل.

وكان إذا دخل المنزل دعا بالإناء فتطهّر للصلاة، ثم يقوم فيصلّي ركعتين يوجز فيهما، ثم يأوي إلى فراشه، فلمّا كان في تلك الليلة لم يدع بالإناء، ولم يتأهب للصلاة، غير أنّه أخذ بعضدي وأقعدني على فراشه، وداعبني ومازحني، وكان بيني وبينه ما يكون بين المرأة وبعلها، فلا والذي سمك[1] السماء وأنبع الماء ما تباعد عنّي النبي(ص) حتى حسست بثقل فاطمة(ع) في بطني[2].

---

(١) سمك: رفع.

(٢) بحار الأنوار، ج١٦، ص٧٥-٨٠.

خديجة وولادة فاطمة(ع)

أمّا كيف كانت ولادتها السعيدة(ع) فقد روى الشيخ الصدوق(ره) بسند معتبر عن المفضّل بن عمر قال: قلت لأبي عبد الله الصادق(ع): كيف كانت ولادة فاطمة(ع) فقال:

«نعم، إنّ خديجة(رضي الله عنها) لمّا تزوّج بها رسول الله(ص) هجرتها نسوان مكّة فلم يدخلن عليها، ولا يسلّمن عليها، ولا يتركن امرأة تدخل عليها، فاستوحشت خديجة لذلك، وكان جزعها وغمّها حذراً عليه[1] (ص)، فلما حملت بفاطمة(ع) كانت فاطمة تحدّثها من بطنها وتصبّرها،وكانت تكتم ذلك عن رسول الله(ص)، فدخل رسول الله(ص) يوماً فسمع خديجة(رضي الله عنها) تحدّث فاطمة(ع)، فقال لها: لمن تحدّثين؟، قالت الجنين الذي في بطني يحدّثني ويؤنسني، قال: يا خديجة، هذا جبرائيل يخبرني أنّها أنثى، وأنّها النسلة الطاهرة الميمونة، وأنّ الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها الأئمة، ويجعلهم خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه.

---

(١) لئلا تسبب له (ص) عداوتهنّ الشديدة الشقاء والألم.

فلم تزل خديجة على ذلك إلى أن حضرت ولادتها، فوجّه إلى نساء قريش وبني هاشم أن تعالين لتلين منّي ما تلي النساء من النساء[1]، فأرسلن إليها: أنت عصيتنا ولم تقبلي قولنا، وتزوّجت محمداً يتيم أبي طالب، فقيراً لا مال له، فلسنا نجيء ولا نلي من أمرك شيئاً.

فاغتمّت خديجة لذلك، فبينا هي كذلك إذ دخل عليها أربع نسوة سمر طوال كأنّهنّ من نساء بني هاشم، ففزعت منهنّ لمّا رأتهنّ، فقالت إحداهنّ: لا تحزني يا خديجة فإنّا رسل ربك إليك، ونحن أخواتك، أنا سارة، وهذه آسية بنت مزاحم وهي رفيقتك في الجنة، وهذه مريم بنت عمران، وهذه كلثم أخت موسى بن عمران، بعثنا الله إليك لنلي منك ما يلي النساء، فجلست واحدة عن يمينها، وأخرى عن يسارها، والثالثة بين يديها، والرابعة من خلفها، فوضعت فاطمة(ع) طاهرة مطهّرة، فلما سقطت إلى الأرض أشرق منها النور حتى دخل بيوتات مكّة، ولم يبق في شرق الأرض وغربها موضع إلاّ أشرق فيه ذلك النور.

ودخل عشر من الحور العين، كلّ واحدة منهنّ معها طشت من الجنة وإبريق من الجنّة، وفي الإبريق ماء من الكوثر.

(ثم تناولت المرأة التي بين يدي خديجة فاطمة(ع)، وغسلتها بماء الكوثر).

---

(١) أي أقبلن لتتولّين شأن ولادتي.

وأخرجت خرقتين بيضاوين أشدّ بياضاً من اللبن، وأطيب ريحاً من المسك والعنبر، فلفّتها بواحدة، وقنعتّها بالثانية، ثم استنطقتها فنطقت فاطمة(ع) بالشهادتين وقالت:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ أبي رسول الله، سيّد الأنبياء، وأنّ بعلي سيّد الأوصياء، وولدي سادة الأسباط».

ثم سلّمت عليهنّ وسمّت كلّ واحدة منهن باسمها، وأقبلن يضحكن إليها، وتباشرت الحور العين، وبشّر أهل السماء بعضهم بعضاً بولادة فاطمة(ع)، وحدث في السماء نور زاهر لم تره الملائكة قبل ذلك.

وقالت النسوة: خذيها يا خديجة طاهرة مطهّرة زكيّة ميمونة، بورك فيها وفي نسلها.

فتناولتها فرحة مستبشرة، وألقمتها ثديها فدرّ عليها فكانت فاطمة(ع) تنمو في اليوم كما ينمو الصبيّ في الشهر، وتنمو في الشهر كما ينمو الصبيّ في السنة[١].

وفي هذه الرواية تطالعنا عدد من المسائل لا بد من التطرق إليها.

أولاً: السنة التي ولدت فيها الزهراء(ع) فقد ورد في الدار النظيم كما يروي صاحب البحار عنه، أنها ولدت (ع) بعد النبوة بخمس

---

(١) راجع بحار الأنوار، ج١٦، ص٧٦-٨١.

سنوات، كما نجد رواية تقول: إنها ولدت (ع) قبل نزول الوحي على الرسول(ص) بخمس سنين وهي رواية ضعيفة لا سند لها ولا حقيقة.

وقد ذهب إلى القول الثاني علماء العامة من أمثال أبي نعيم في معرفة الصحابة، وأبي الفرج في مقاتل الطالبيين، وابن الأثير في المختار من مناقب الأخيار، والطبري والسيوطي، والغاية من ذلك معروفة للمتأمل وللقارئ الفطن.

بينهما ذهب إلى القول الأول معظم علماء الشيعة مثل: الكليني في الكافي، وابن شهر آشوب في مناقبه، والمجلسي في بحاره، رواية عن الباقر(ع) كما ورد ذلك في دلائل الإمامة عن الإمام الصادق(ع) وفي روضة الواعظين، وهذا ما أكد عليه أهل البيت(عليهم السلام).

وبقليل من البحث والتدقيق نجد أن القول الذي ذهبت إليه الشيعة هو الأصح أي أن ولادتها (ع) كانت بعد البعثة لا قبلها أي بعد أن عرج النبي(ص) إلى السماء، ولعل الذين قالوا بولادتها قبل البعثة بخمس سنين، إنما قالوا ذلك لمآرب كثيرة لا تخفى على أحد، أقلها نفيهم للحديث الشريف الذي يؤكد أن الزهراء(ع) من رطب الجنة التي كونت نطفتها.

ثانياً: التأكيد على أن نطفة الزهراء إنما تكونت من الرطب التي تناولها الرسول(ص) إما في أثناء عروجه إلى السماء، وإما عندما أنزل

له جبرائيل طعاماً من السماء بعد أن كان مأموراً بالانقطاع عن خديجة أربعين يوماً.

ثالثاً: التأكيد على فضلها (ع) ومنزلتها من خلال مجيء سارة وآسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران وصفراء بنت شعيب لدى خديجة لكي يكنّ جميعهن في استقبال الزهراء(ع) حين ولادتها.

رابعاً: الحديث يظهر فضل وكرامة خديجة(ع) ومكانتها عند الله سبحانه وتعالى حيث أرسل إليها النسوة ليكن عندها أثناء الولادة.

خامساً: إظهار المصاعب والآلام التي كانت تواجهها خديجة من المجتمع الذي كانت تعيش معه ومدى الحقد والأنانية من ذلك المجتمع تجاه خديجة(ع) بسبب زواجها ونصرتها للرسول محمد(ص).

قصة شعب أبي طالب(ع)

وفي السنة العاشرة بعد المائتين وستة آلاف كان خروج رسول الله(ص) إلى الشعب، وإجمال القصة أنه لمّا رأى المشركون لجوء المسلمين إلى الحبشة، وأنهم حصلوا على الأمان هناك، وأنّ الذين تخلّفوا في مكة منهم قد اطمأنّوا إلى حماية أبي طالب، كما أن إيمان حمزة شدّ من عزائمهم، تنادوا إلى عقد مؤتمر كبير توافقوا فيه على قتل محمد(ص)، ولما علم أبو طالب بذلك، جمع آل هاشم وعبد المطلب ونساءهم وأطفالهم وخرج بهم إلى وادٍ يقال له شعب أبي طالب، واستجاب أبناء عبد المطلب مسلمين وغير مسلمين إلى أوامر أبي طالب بحماية النبي(ص) والذود عنه، إلاّ أبا لهب فقد انقلب وانضمّ إلى العدوّ.

وقام أبو طالب مع ذويه بحفظ محمد(ص) وحمايته، ووضع حرّاساً عند طرق الشعب، وكان ابنه عليّ(ع) يرقد أكثر لياليه إلى جانب محمد(ص) بينما تكفّل حمزة بالحراسة قائماً بالسيف عند رأسه.

ولما رأى المشركون ذلك وأيقنوا أن لا سبيل لهم للوصول إلى محمد(ص)، تداعى أربعون من كبارهم إلى دار الندوة، واتخذوا فيما بينهم عهداً على مقاطعة بني هاشم، فلا يصاهرونهم، ولا يبيعونهم ولا

يشترون منهم، ولا يبرمون معهم صلحاً ما لم يسلّموهم محمداً ليقتلوه، وكتبوا بعهدهم هذا صحيفة تواثقوا عليها جميعهم، وأودعوها عند أم جلاس خالة أبي جهل.

وهكذا حاصرت قريش بني هاشم في الشعب، وتوقف أهل مكّة عن التعامل معهم في بيع أو شراء، إلاّ في أوقات الحج، وهي أوقات حرام يفد الأعراب فيها إلى مكّة، فيخرج بنو هاشم من الشعب، ويبتاعون منهم ما يطعمون، وكانت قريش تنازعهم في ذلك، فإذا أراد أحدهم شراء شيء دفعت قريش إلى البائع أضعاف ثمنه ليحولوا دون حصوله عليه، وإذا ذهب أحد من القرشيين بشيء إلى الشعب بدافع القرابة والرحم منعوه، وإذا أمسكوا بأحد من بني هاشم خارج الشعب أخذوه وعذّبوه.

وكان ممّن يزوّدهم بالأطعمة أحياناً أبو العاص بن الربيع صهر النبي(ص)، وهشام بن عمرو، والحكيم بن حزام بن خويلد وهو ابن أخي خديجة.

ويروى أن أبا العاص حمل إلى الشعب إبلاً موسوقة بالقمح والتمر، ومن هنا ما قاله(ص) من أنّ أبا العاص أدّى حقّ المصاهرة، لأنه كان متزوج لإحدى ربائبه(ص).

وانصرمت ثلاث سنوات سارت فيها الأمور على هذا المنوال، حتى ارتفع صراخ بني عبد المطّلب من شدّة الجوع، فتنادى بعض المشركين

لنقض العهد، وأجمع خمسة منهم أمرهم على نقض العهد وتمزيق الصحيفة وهم، هشام بن عمرو، وزهير بن أبي أميّة بن المغيرة، والمطعم بن عديّ، وأبو البختري، وزمعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد، وتوجّهوا في الغداة إلى الكعبة قادماً من الشعب مع رهط من قومه، فظنّ أبو جهل أن أبا طالب قد فقد صبره مما لقيه وأهله في الشعب، وأنه قدم لتسليمهم محمداً(ص) لكن أبا طالب وقف يقول: أيّها القوم، أقول قولاً ليس فيه لكم إلاّ الخير، إن ابن أخي محمداً(ص) أخبرني أن الله أوكل بصحيفتكم أرضة تأكل منها ما كتب من الجور والظلم والقطيعة، إلاّ ما كان من «باسمك اللهم» فتدعه، فأرى أن تحضروا الصحيفة، فإن كان ما قاله حقّاً فما لكم عليه حقّ في حقد أو كيد، وإن كان كذباً سلّمته إليكم.

استحسن القوم قوله، ثم أحضروا الصحيفة من أم جلاس، ولما فتحوها وجدوها وقد أتت عليها الأرضة إلاّ «باسمك اللهم»، وهي فاتحة كانت قريش تفتتح بها كتاباتها، فصعقوا وغمرهم الخجل.

ثم إن المطعم بن عديّ مزّق الصحيفة وقال: إننا نبدأ من هذه الصحيفة الظالمة. إذ ذاك قفل أبو طالب عائداً إلى الشعب، وفي اليوم التالي توجّه الرجال الخمسة إلى الشعب يصحبهم رهط من قريش، وعادوا ببني هاشم إلى مكّة وأقرّوهم في بيوتهم. وكانت خديجة في تلك الفترة مرافقة للحبيب القريب (ص) فهي تخفف عنه وتصبره ونست

حياة النعومة والترف التي كانت تنعم بها من أجل شراء الآخرة مع الحبيب...

عام الحزن

في السنة الثالثة عشرة بعد المائتين وستة آلاف توفّي أبو طالب وخديجة، أما أبو طالب فكانت وفاته في السادس والعشرين من رجب في ختام السنة العاشرة للبعثة، وبكاه رسول الله(ص)، ولمّا حملوا جثمانه تقدّمه وهو يقول: يا عمّ، لقد وصلت رحماً، ولم تخذلني في أمري، فجزاك الله عني خيراً.

هذا وإنّ جلالة شأن أبي طالب، وما كان من نصرته لرسول الله(ص)، وغيرها من فضائل لا يتّسع لذكرها هذا المقام.

وبعد ثلاثة أيام على قول، أو خمسة وثلاثين يوماً على قول آخر توفّيت خديجة(رضي الله عنها)، وقيل لقد كانت وفاتها(ع) ليلة العاشر من شهر رمضان بعد خروج المسلمين من الشعب بأيام، وقبل الهجرة بثلاث سنوات وهي التي طالما دافعت عن النبي(ص) ووقفت إلى جانبه فكانت (عليها السلام) أول من آمن بالنبي وكانت تدافع عنه عندما كانت قريش ترمي النبي(ص) بالحجارة وعندما لم يرجع رسول الله(ص) في يوم من الأيام خرجت مع الإمام علي(ع) يبحثان عن رسول الله(ص) في أودية مكة وشعابها وكانت تنادي: «أين أنت يا رسول الله؟!...»

وكان جبرائيل عند النبي(ص) فأخبره أن خديجة تجول الوادي باحثة عنك منادية، فناداها رسول الله(ص) فأقبلت عليه تمسح آثار الدماء وتبلسم الجراح وتخفف الآلام وعادت به إلى البيت والإمام علي(ع) بصحبتها وهي تشجّعه قائلة: «ثابر على ما نهضت من أجله إن الله ناصرك وخاذل أعدائك»[١].

وكان جبرائيل كلما نزل على رسول الله(ص) يسأل عن خديجة حاملاً معه السلام والتحية من رب العالمين، لأن لها مكانة كبرى ومنزلة خاصة ولطالما بكى رسول الله كلما ذكرها، وقد أتته امرأة ذات مرة فأكرمها فقالت عائشة: لماذا أكرمت هذه المرأة؟!.

قال (ص): «إنها كانت صديقة لخديجة وكانت تأتينا في أيامها، وإن حسن العهد من الإيمان وأنا أجلها وأحترمها لأنها كانت تجل خديجة وتحترمها».

وفي لحظات موتها كانت أم أيمن إلى جانبها فرأتها تبكي، فسألتها عن بكائها، فقالت: يا أم أيمن أبكي لابنتي فاطمة - وقد كانت الزهراء(ع) يومها في الخامسة من عمرها الشريف - إنها لن ترى أمها إلى جانبها في ليلة زفافها. فقالت لها أم أيمن: لك العهد أن أكون معها ليلة الزفاف. وقبل أن تفارق الحياة قالت خديجة للزهراء(ع): إذا أنا

---

(١) البحار، ج٢، ص٢٧.

متّ فاطلبي منه - أي رسول الله(ص)- أن يكفنني بردائه الذي كنت أدثره به، وعندما دخل النبي(ص) ورآها كانت قد أسلمت الروح فبكاها بكاءاً شديداً، فأقبلت الزهراء(ع) على أبيها تلوذ به باكية أمها، ثم أخبرته بوصية أمها بشأن الرداء.

وعندما أخرج رسول الله(ص) الرداء، وإذا بجبرائيل(ع) قد هبط يحمل خمس قطع من قماش الجنة، وقال: «يا رسول الله قل لفاطمة: إن الله يقرئك السلام ويقول لك: إن أمك خديجة في بيت من الجوهر، عماده من الياقوت الأحمر مع آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران ثم قال جبرائيل: يا رسول الله هذه خمس قطع من قماش الجنة: كفن لخديجة وكفن لك وكفن لفاطمة وكفن لأخيك ووزيرك ووصيك علي أمير المؤمنين والخامس لولدك الحسن فنقل الأكفان إلى فاطمة وأخبرها فحفظتها إلى يوم وفاتها».

فقام رسول الله(ص) بدفنها بيده في الحَجون، وهي مقبرة في مكّة، وبعد وفاتها ووفاة عمّه(رضي الله عنهما)، حزن رسول الله كثيراً لموتهما، فلزم بيته، وقلّما كان يغادره، وسمّي عامه هذا عام الحزن. فخسر رسول الله(ص) خير زوجة وقفت إلى جانبه في السراء والضراء وشاركته حلو الحياة ومرها وخسر عمه أبا طالب الذي كان عوناً له على قريش التي وقفت في وجه دعوته وناهضته فذاق منها الأمرين.

يقول أمير المؤمنين(ع) في رثاء هذين العظيمين:

أعينّي جودا بارك الله فيكما
على هالكين ما ترى لهما مِثْلا
على سيد البطحاء وابن رئيسها
وسيدة النسوان أول من صلّى
مصابهما أرجى لي الجوّ والهوا
فبتّ أقاسي منهما الهم والثكلا
لقد نصرا في الله دين محمدٍ
على من بغى في الدين قد رعيا إلاّ

وقال أيضاً في رثاء أبي طالب:

أبا طالب عصمة المستجيـ
ـر وغيثَ المحول ونور الظُلم
لقد هدّ فقدك أهل الحفا
ظ فصلّى عليك وليّ النعم
ولقاك ربُك رضوانه
فقد كنت للطهر من خير عمّ

لقد ماتت خديجة وغابت عن دنيا الناس، ولكنها ظلت ماثلة بين عيني زوجها العظيم الوفي ودخلت في حياته من بعده نساء عديدات حسبما يحدث بذلك التاريخ، ولكن مكانها من قلبه وفي دنياه ظل خالياً لم تشغله امرأة غيرها، ولم تستطع واحدة منهن أن تحتل مكانها وأن

تفلح في أبعاد طيفها من قلبه ونفسه الذي كان يتبعه حيث يسير. وشهد بيته عائشة بنت أبي بكر وهي في مطلع صباها ونضرة شبابها تسيّد بها الغيرة من خديجة التي سبقتها إلى قلبه، لأنه ظل يردد اسمها ووفاءها في كل صباح ومساء.

وفي يوم الفتح وقد مضى على وفاتها (ع) أكثر من عشر سنين حافلة بالأحداث نرى رسول الله(ص) وقد دخل مكة يختار مكاناً لينزل فيه قريباً من قبرها في قبة بنيت له إلى جوار القبر ليشرف منها على فتح مكة كما جاء في حوادث السنة الثامنة في المجلد الثالث من تاريخ الطبري.

وستدخل في الإسلام بعد خديجة مئات الملايين من النساء، ولكنها ستبقى وحدها من تلك الملايين المسلمة الأولى التي أثرها الله بالدور العظيم في بناء الإسلام، رمزاً للوفاء والمحبة والإيثار لزوجها الذي كانت أول من صدقه وآمن به وبذلت له راحتها ومالها وهان عليها كل شيء في سبيله.

جاء في سيرة ابن إسحاق أن رسول الله(ص) كان لا يسمع شيئاً يكرهه ويحزنه إلا فرجه الله عنه بخديجة تثبته وتخفف عنه وتهون عليه أمر الناس حتى فارقت الدنيا.

يا رسول الله أين أمي؟

قال أبو عبد الله الصادق(ع): إن خديجة لما توفيت جعلت فاطمة تلوذ برسول الله(ص) وتدور حوله وتسأله: يا رسول الله أيّن أمي؟.

فجعل النبي(ص) لا يجيبها.. فجعلت تدور على من تسأله، ورسول الله لا يدري ما يقول لأنه كان قد غلبته عبرته وفاضت عيناه بالدموع من الحزن الشديد الذي ألم به لفقد خديجة(ع). وهنا نزل جبرائيل على النبي(ص) وقال له: «إن ربك يأمرك أن تقرأ على فاطمة السلام وتقول لها: إن أمك في بيت من قصب كعابه من ذهب، وعمده من ياقوت أحمر، بين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، فقالت فاطمة(ع): إن الله هو السلام، ومنه السلام وإليه السلام»[1].

---

(١) بحار الأنوار، ٢٧/٤٣.

قراءة في ملامح خديجة

عندما نقلب صفحات التاريخ، بغية الحصول على أحسن صورة لخديجة، وكل صورها حسناء يعرض علينا التاريخ، من أرشيف حياتها صور عديدة منها:

١- كانت خديجة ملكة عظيمة من ملوك العرب وكانت امرأة حازمة لبيبة،وهي السيدة الغنية، المضيئة الذكية»[١].

٢- كانت خديجة أهم امرأة في حياة النبي، وكان النبي إذا ذكرها ترقرقت الدمعة في أحداقه، وربما رأته عائشة يبكي، عند ذكر خديجة فأغاظها ذلك...»[٢].

٣- كانت خديجة في الجاهلية، تعرف بالطاهرة، وبسيدة نساء قريش، وهي مع ذلك من أثرياء قريش وأوسعهم جاهاً، وكانت مفطورة على التدين بعامل الوراثة والتربية فأبوها خويلد كان من أقطاب الإيمان والشجاعة، وهو الذي نازع (الملك تبع) حين أراد هذا الأخير أن يحمل الحجر الأسود، معه إلى اليمن، فتصدى له، ولم ترهبه قوته، ولا كثرة رجاله، حرصاً منه على هذا الشك من مناسك دينه. وابن عمها ورقة

---

(١) البحار، ج١٦، ص٩-٢٠.

(٢) البحار، ج١٦، ص٨.

بن نوفل العالم بالأديان، والذي كان يعكف على دراسته التاريخ، في كتب النصارى، واليهود، وكان يسخر من عبادة الأصنام... ويتجه إلى عبادة الله وحدة».

٤- قال ابن الأثير في الكامل: كانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه، بشيء تجعله لهم منه، فلما بلغها عن رسول الله(ص) صدق الحديث، وعظم الأمانة، وكرم الأخلاق، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره، ومعه غلامها ميسرة...»[٢].

٥- إنها امرأة عريقة النسب ممدودة الثروة، وقد عرفت بالحزم، والعقل، بحيث كانت الإبل المعدة لتجارة خديجة في رحلة الشتاء والصيف تقارب مائة ألف بعير[٣].

٦- ولدت خديجة في بيت من أعرق بيوتات العرب، شرفاً، وكرامة ومجداً. فأشربت في قلبها الأخلاق الحميدة، والصفات الحسنة، وكان قومها يسمونها بالطاهرة.

---

(١) فقه السيرة للغزالي، ص٧٨.

(٢) فقه السيرة للغزالي، ص٧٨.

(٣) في رحاب محمد وآله، ص٤٠.

لماذا خديجة؟!

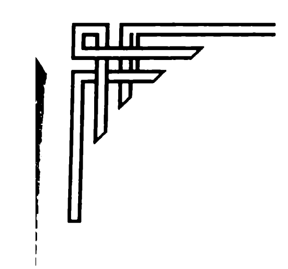
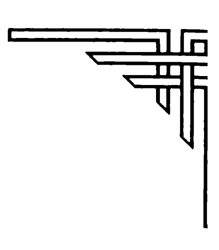
كانت خديجة ملكة الحجاز في ثرائها العريض، وتجارتها الواسعة، وحسن أخلاقها، ورجاحة عقلها. وحينما تزوجت من النبي(ص) كانت الزوجة المثالية في إدارة الحياة داخل البيت وخارجه، وفي تربية السلالة الطيبة.

وحينما بعث النبي(ص) بالرسالة، استجابت له وآمنت بدعوته قبل غيرها، ورضت بالرسالة وتعاليمها، وطبّقتها على نفسها، وأبدت نشاطاً واسعاً في تبليغها ونشرها. كما جعلت ثروتها في خدمة النبي(ص) ينفقها كيف يشاء، ولأن الإسلام في بادئ الأمر كان مرفوضاً من الأغنياء الذين وجدوا فيه تهديداً لمصالحهم، كان الفقراء يتسابقون إليه بفطرتهم وصفاء نفوسهم وبعدهم عن الحسابات المادية، ولأن هذا يكلفهم معاشهم الذي يؤمنه لهم الأغنياء، كان رسول الله(ص) يصرف أموال خديجة في إعاشتهم وتحريرهم من الاستعباد.

وقد حدى هذا العطاء اللامحدود من خديجة للإسلام بالنبي(ص) - الذي لا ينطق عن الهوى - إلى أن يبيّن الحقيقة التي أصبحت وساماً على جبين التاريخ الرسالي حيث قال (ص): «قام الدين بسيف علي ومال خديجة»، حيث كانت ثروة خديجة(ع) بمثابة الحجر الأساس

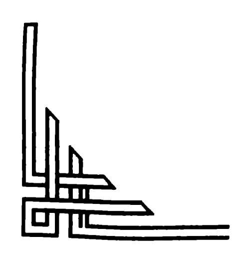
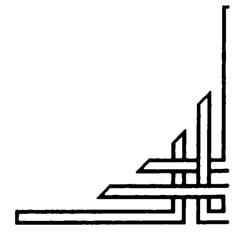
لبناء الأمة اقتصادياً. وكان التكامل النفسي لخديجة(ع) وتفاعلها الفكري مع الرسالة الإسلامية في كل بنودها النازلة - حتى ذلك الوقت - على رسول الله(ص) مما حدى به (ص) إلى أن يجعل خديجة في مصاف النساء الأربع الكاملات، حيث قال الرسول الأكرم(ص):

«كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاّ أربع: آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد(ص)».

الفصل السادس

فضائل خديجة (ع) في الأحاديث والأشعار

فضائل خديجة(ع)

لقد عرفنا سابقاً بأن خديجة كانت أميرة الحجاز، بمالها الكثير، وتجارتها المشهورة، وبأخلاقها وشدة ذكائها.. فكانت في الحجاز كالشمعة المضيئة في بيت مظلم فهي الحنونة الكريمة ويشهد لها بذلك حنانها وكرمها على بنتا أختها هالة في ذلك الزمن الموحش.

وبعد أن تزوجت من النبي(ص) كانت الزوجة المثالية في إدارة الحياة داخل البيت وخارجه، وفي تربية السلالة الطيبة.

وحينما بعث النبي(ص) بالرسالة، كانت خديجة أول من استجابت له وآمنت بدعوته قبل غيرها، ورضت بالرسالة وتعاليمها، وأخذت تطبّقها على نفسها، ولم تكتفِ بذلك بل أصبحت مبلغة وناشرة مع زوجها (ص) لتلك الرسالة وبنشاط واسع، بالإضافة إلى ذلك جعلت ثروتها العريضة في خدمة النبي(ص) بصورة خاصة لكي تكون في خدمة الإسلام عامة، وكان النبي(ص) حر في نفقها كيف يشاء، ولأن الإسلام في بادئ الأمر كان مرفوضاً من قبل الأغنياء الذين وجدوا فيه تهديداً لمصالحهم الخاصة، كان الفقراء يسارعون في الدخول إلى الإسلام بفطرتهم وصفاء نفوسهم وبعدهم عن الحسابات المادية، وكان

ذلك يؤدي إلى امتناعهم عن لقمة العيش التي يوفرها لهم أصحاب الأموال الكثيرة، فكان رسول الله(ص) في ذلك الوقت يصرف أموال خديجة في توفير ما منعوا منه من مأكل وملبس بل زاد على ذلك فأخذ يحرر من كان مستعبد..

وقد حدى هذا العطاء اللامحدود من خديجة للإسلام بالنبي(ص)، الذي لا ينطق عن الهوى - إلى أن يبين الحقيقة التي أصبحت وساماً خالداً على جبين التاريخ الرسالي حيث قال(ص): «قام الدين بسيف علي ومال خديجة».

حيث كانت أموال خديجة(ع) القاعدة الأساسية لبناء وتطور الأمة اقتصادياً.

وكان التكامل النفسي لخديجة(ع) وتفاعلها الفكري مع الرسالة الإسلامية، في كل بنودها النازلة - حتى ذلك الوقت - على رسول الله(ص) مما حدى به (ص) إلى أن يجعل خديجة في مصاف النساء الأربع الكليلات، حيث قال(ص): كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاّ أربع: آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد(ص).

أما بعد وفاتها ورحيلها إلى دار المقر راضية مرضية فقد بقيت

ذكراها عطرة تملأ بيت النبي(ص) فهو لا ينساها ولا يمل من ذكراها أبداً، وبقي يتذكر ويحن لكل شيء يذكره بخديجة(ع)وخدمتها للإسلام وكذلك عظمتها، وليس هو فقط كان يحن لها بل فاطمة(ع) أيضاً، فقد جاء عن الإمام الصادق(ع) أنه قال: لما توفيت خديجة(رضي الله عنها)، جعلت فاطمة تلوذ برسول الله(ص) وتدور حوله وتقول: أبه أين أمي؟.

قال: فنزل جبرائيل وقال له: ربك يأمرك أن تُقرأ فاطمة السلام وتقول لها أن أمك في بيتٍ من قصب، كعابه من ذهب، وعمده من ياقوت أحمر، بين آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران.

وكان (ص) يردد دائماً عندما يعاتبه أحدٌ على ذكرها بعد أن عوضه الله خيراً منها:

«والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس».

وكان (ص) إذا ذبح شاة يقول: أرسلوا إلى أصدقاء خديجة فيوزع عليها منها، ثم يقول: والله إنّي لأحب من كان يحبها.

وقد جاء في خطبة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) أنه قال: وقد علمتم موقفي من رسول الله(ص) بالقرابة القريب.. إلى أن قال: ولقد كان في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ

في الإسلام غير رسول الله(ص) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوة.

مكانتها عند رسول الله(ص)

من الطبيعي أن تكون لخديجة بنت خويلد (ع) مكانة مرموقة وسامية عند الرسول(ص)، لما قدمته من دعم مادي ومعنوي في إعانة الدين وزوجها... لقد عاش النبي(ص) معها خمساً وعشرين سنة لم يتزوّج خلالها بزوجة أخرى، كلّ ذلك إعظاماً لها، وتبجيلاً لمكانتها العالية، ووفاءً لعطائها للإسلام.

لقد ماتت خديجة وغابت عن دنيا الناس، ولكنها ظلت ماثلة بين عيني زوجها العظيم الوفي ودخلت في حياته من بعدها نساء عديدات حسبما يحدث بذلك التاريخ، ولكن مكانها من قلبه وفي دنياه ظل خالياً لم تشغله امرأة غيرها، ولم تستطع واحدة منهن أن تحتل مكانها وأن تفلح في أبعاد طيفها من قلبه ونفسه الذي كان يتبعه حيث يسير[١].

ففي أسد الغابة عن عائشة: كان رسول الله(ص) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة، فقلتُ: هل كانت إلا عجوزاً - وفي رواية: ما زلت تذكر بحسرة وألم عجوزاً من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت من عدة سنين[٢]- فقد أبدلك الله خيراً منها.

---

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر، ج١، لهاشم معروف الحسني.

(٢) المحب الطبري.

ومع أنه كان واسع الصدر صبوراً على الأذى لا ينفعل لكلمات الغير من هذا النوع، لكنه بدا عليه الانفعال وتغير لونه والتفت إليها وقد استولى عليه الغضب، وفي الرواية: فغضب حتى اهتزّ مقدم شعره من الغضب، ثم قال:

«لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني في مالها - بمالها - إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها- الولد دون غيرها من النساء[١] - أولاداً إذ حرمني أولاد النساء».

قالت عائشة: «فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً»[٢].

ولكنها الغيرة كانت تستبد بها في أكثر الأحيان، فلا تملك نفسها إذا ذكرها النبي(ص) لمناسبة من المناسبات وما أكثر المناسبات التي كانت تذكره بها، فلا تملك نفسها أن تنال منها وتقول:

«كأن لم يكن في الدنيا غيرها، وعندما يسمع منها ذلك يأخذ في تعداد محاسنها ومواساتها له وبذلها السخي في سبيل الله والإسلام»[٣].

ويحدث الرواة عنه أنه كان إذا ذبح شاة يقول: أرسلوا إلى أصدقاء خديجة فيوزع عليهم منها، فإذا عاتبته عائشة على ذلك يقول: والله إني لأحب من كان يحبها.

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر.

(٢) أسد الغابة، ٥: ٥٣٩.

(٣) سيرة الأئمة الاثني عشر، ج١.

وجاء عن عائشة أنها قالت في أكثر من مناسبة: «ما حسدت أحداً كما حسدت خديجة وما تزوجني رسول الله إلا بعد أن ماتت».

وقالت: «ما غرت من امرأة لرسول الله كما غرت من خديجة حينما كنت أسمع رسول الله يذكرها، وما تزوجني إلا بعد موتها بثلاث سنين».

وقالت: «ما غرتُ على أحد من أزواج النبي(ص) ما غرت من خديجة، وما بي أن أكون أدركتها، وما ذاك إلاّ لكثرة ذكر رسول الله(ص) لها، وكان لمّا يذبح الشاة يتبع بها صدائق خديجة فيهديها لهنّ»[1].

وحينما كلّمنه أزواجه (ص) في زواج فاطمة(ع) وذكرْنَ خديجة، تقول أم سلمة: فلمّا ذكرنا خديجة بكى، وقال: «خديجة وأين خديجة»، وأخذ في الثناء عليها.

وحتى يوم الفتح وقد مضى على وفاتها أكثر من عشر سنين حافلة بالأحداث نرى رسول الله وقد دخل مكة يختار مكاناً لينزل فيه قريباً من قبرها في قبة بنيت له إلى جوار القبر ليشرف منها على فتح مكة كما جاء في حوادث السنة الثامنة في المجلد الثالث من تاريخ الطبري.

وستدخل في الإسلام بعد خديجة مئات الملايين من النساء، ولكنها ستبقى وحدها من تلك الملايين المسلمة الأولى التي أثرها الله بالدور

---

(١) أسد الغابة، ٥: ٥٣٨.

العظيم في بناء الإسلام، رمزاً للوفاء والمحبة والإيثار لزوجها الذي كانت أول من صدقه وآمن به وبذلت له راحتها ومالها وهان عليها كل شيء في سبيله.

وجاء في سيرة ابن إسحاق أن رسول الله(ص) كان لا يسمع شيئاً يكرهه ويحزنه إلا فرجه الله عنه بخديجة تثبته وتخفف عنه وتهون عليه أمر الناس حتى فارقت الدنيا.

خديجة في أحاديث الرسول(ص)

لقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي(ص) تخص خديجة(ع) نذكر منها:

١- أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب (تزويج النبي(ص) خديجة، وفضلها (رضي الله عنها))- فقال:

حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا محمد بن فضيل، عن عمارة، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: قال: أتى جبرائيل(ع) النبي(ص) فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء، فيه إدامٌ - أو طعام - أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليهم السلام من ربها ومنّي، وبشّرها ببيت في الجنّة من قصب، لا صَخَبَ فيه ولا نصب[1].

وأخرجه البخاري(رحمه الله تعالى) - في هذا الباب - باب مناقب خديجة (رضي الله عنها) وبشارتها ببيت في الجنة، من روايتين لعائشة.

٢- روي عن المفيد، عن ابن قولويه، عن أبيه، عن سعد، عن ابن عيسى، عن خديجة(رضي الله عنها)، جعلت فاطمة(ع) تلوذ برسول الله(ص) وتدور حوله، وتقول أبه أين أمي؟، قال فنزل جبرائيل(ع)

---

(١) التوحيد للبخاري، ج٩، ص١٤٤.

فقال له: ربك يأمرك أن تُقرئ فاطمة السلام وتقول لها: إنّ أمّك في بيت من قصب، كعابه من ذهب، وعمده ياقوت أحمر، بين آسية ومريم بنت عمران. فقالت فاطمة(ع): إنّ الله هو السلام، ومنه السلام، وإليه السلام[١].

٣- نقلاً عن تفسير العياشي مخطوط عن زرارة، وحمران ومحمد بن مسلم، عن أبي جعفر(ع) قال: حدث أبو سعيد الخدري أن رسول الله(ص) قال: إن جبرائيل(ع) قال لي ليلة أسريَ بي حين رجعت وقلت: يا جبرائيل هل لك من حاجة؟، قال حاجتي أن تقرأ على خديجة من الله ومنّي السلام، وحدثنا عند ذلك أنّها قالت حين لقاها نبي الله(ص) فقال لها: الذي قال جبرائيل، فقالت: إنّ الله هو السلام، ومنه السلام، وإليه السلام، وعلى جبرائيل السلام[٢].

٤- قال ابن هشام: حدثني من أثق به أن جبرائيل أتى النبي(ص) فقال: أقرئ خديجة من ربّها السلام، فقال رسول الله(ص): يا خديجة هذا جبرائيل يقرئك من ربك السلام، قالت خديجة: الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبرائيل السلام[٣].

٥- قال (ص): «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة»[٤].

---

(١) بحار الأنوار، ج١٦، ص١، ح١.

(٢) بحار الأنوار، ج١٦، ص٧، ح١١.

(٣) بحار الأنوار، ج١٦، ص١١.

(٤) صحيح البخاري، ٤: ١٦٤.

٦- قال رسول الله(ص): «خير نساء العالمين مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»[١].

٧- قال رسول الله(ص): «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[٢].

٨- قال (ص): «خديجة سابقة نساء العالمين إلى الإيمان بالله وبمحمد»[٣].

٩- قال ابن عباس: خطّ رسول الله(ص) في الأرض أربعة خطوط، ثم قال: «أتدرون ما هذا؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال رسول الله(ص): «أفضل نساء أهل الجنة أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[٤].

١٠- قال (ص): «خير نسائها خديجة بنت خويلد، خير نسائها مريم بنت عمران»[٥].

---

(١) أسد الغابة، ٥: ٥٢٧.

(٢) الاستيعاب، (المطبوع مع الإصابة)، ٤: ٢٧٩.

(٣) المستدرك على الصحيحين، ٣: ١٨٤.

(٤) الإستيعاب (المطبوع مع الإصابة)، ٤: ٢٧٩.

(٥) أسد الغابة، ٥: ٥٢٨.

١١- قال (ص): «أربع نسوة سيّدات عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وأفضلهنّ عالماً فاطمة»[١].

١٢- قالت عائشة: كان رسول الله(ص) إذا ذكر خديجة لم يكد يسأم من ثناء عليها واستغفار لها، فذكرها يوماً فحملتني الغيرة، فقلت: لقد عوّضك الله من كبيرة السن. قالت: فرأيته غضب غضباً شديداً، فأسقط في يدي وقلت في نفسي: اللهم إذا أذهبت غضب رسولك عني لم أعد لذكرها بسوء، فلمّا رأى النبي ما لقيت قال: «كيف قلتِ؟، والله لقد آمنت بي إذ كذّبني الناس، وأوتني إذ رفضني الناس، ورزقت منها الولد وحرمتيه مني».

قالت: فغدا وراح عليّ بها شهراً[٢].

١٣- قال (ص): «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»[٣].

١٤- قالت عائشة: كان رسول الله(ص) إذا ذبح الشاة يقول: «أرسلوا إلى أصدقاء خديجة»، فذكرت له يوماً، فقال: «إنّي لأحب حبيبها»[٤].

---

(١) ذخائر العقبى، ص٤٤.

(٢) سير أعلام النبلاء، ٢: ٨٢.

(٣) الفصول المهمة، ص١٢٩.

(٤) الإصابة، ٤: ٢٨١.

١٥- عن عائشة: إن رسول الله(ص) بشّر بخديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[١].

١٦- قالت عائشة: ما غرت على أحد من نساء النبي(ص) ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي(ص) يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطّعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة. فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا إلاّ خديجة؟! فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها الولد»[٢].

١٧- قالت عائشة: كان رسول الله(ص) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلاّ عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها، فغضب ثم قال:

«لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء».

قالت عائشة: فقلتُ في نفسي لا أذكرها بعدها بسيئة أبداً[٣].

---

(١) الإصابة، ٤: ٢٧٣.

(٢) صحيح البخاري، ٥: ٣٩.

(٣) الإصابة، ٤: ٢٧٥.

١٨- قالت عائشة: جاءت عجوز إلى النبي(ص) وهو عندي، فقال لها رسول الله(ص): «من أنتِ؟».

قالت: أنا جمانة المزينة.

فقال: بل حسانة المزينة، كيف أنتم، كيف حالكم؟، كيف كنتم بعدنا.

قالت: بخير، بأبي وأمي يا رسول الله.

فلما خرجت قالت: «يا رسول الله، تُقْبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟، قال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإنّ حسن العهد من الإيمان».

١٩- قال أنس بن مالك: «كان رسول الله(ص) إذا أُتي بشيء يقول: إذهبوا به إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة»[1].

---

(١) الصالحي في كتابه أزواج النبي، ص١٦٢، طبع دار ابن كثير.

خديجة في شعر ورقة بن نوفل

قال ابن إسحاق: وقد كانت خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وكان ابن عمها - وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس، ما ذكر لها غلامُها مِن قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يُظِلانه.

فقال ورقة: لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي يُنتظر هذا زمانه، أو كما قال.

فجعل ورقة يستبطىء الأمر ويقول حتى متى؟، وقال في ذلك:

لججْتُ وكنتُ في الذِّكرى لَحُوجا
لهم طالما بعث النَّشيجا

ووصْفٍ مِنْ خديجة بعد وصْفٍ
فقد طال انتظاري يا خديجا

ببطن المكَّتين[1] على رجائي حديثك
أن أرى منه خروجا

بما خبرْتِنا من قولِ قِسٍ
مِن الرُّهبانِ أكره أن يَعُوجا

---

(١) المكتين: جانبا مكة، أو بطلمها وظواهرها.

بأن محمداً سيَسُودُ يوماً[١]
ويخصمُ مَنْ يكون له حجِيجا
ويُظْهر في البلاد ضياء نور
يُقيم[٢] به البرية أن تموجا
فيلْقى مَنْ يحاربه خساراً
ويلْقى مَنْ يُسالمه فلُوجا[٣]
فيالَيتي إذا ما كان ذاكمْ
شهدتُ وكنت[٤] أوَّلهم وُلوجا
وُلوجاً في الذي كرِهتْ قُرَيشٌ
ولو عَجَّتْ بمكَّتها عجيجا
أرجِّى بالذي كَرِهوا جميعاً
إلى ذي العرش إن سفلوا عُروجا
وهل أمر السفالة غير كُفْو
بمن يختار، مَنْ سمك البروجا
فإن يبقوا وأبْقَ تكن أمورٌ
يضجُّ الكافرون لها ضجيجا
وإنْ أهْلك فكل فتىً سَيلْقَى
من الأقدار مَتْلَفة حرُوجا[٥]

---

(١) ط: قوماً وهو خطأ. وف ابن هشام سيسود فينا.

(٢) خ ط: يقوم وهو خطأ، وما أثبته عن ابن هشام

(٣) الفلوج: النجاح والظفر.

(٤) ابن هشام: فكنت

(٥) ط: فروجاً، وهو خطأ.

وقال ورقة أيضاً فيما رواه يونس بن بكير[١] عن ابن إسحاق عنه.

أتبْكر أم أنت العشيَّةَ رائحُ
وفي الصَّدْرِ مِنْ إضمارك الحُزْنَ قادحُ؟

لفُرْقةِ قوم لا أحبُّ فراقَهم
كأنك عنهم بَعد يومين نازحُ

وأخبارِ صِدْقٍ خُبِّرت عن محمدٍ
يخبِّرها عنه إذا غاب ناصحُ

أتاك[٢] الذي وجهت يا خير حرة
بغَوْرٍ وبالنَّجْدين حيث الصَّحاصحُ[٣]

إلى سُوق بُصْرى في الرِّكاب التي غدت
وهُنَّ من الأحمال قعْصٌ وَالح[٤]

فيُخْبرنا عن كل خيرٍ بعلْمِه
وللحقِّ أبواب لهن مَفاتحُ

بأن ابنَ عبد الله أحمد مُرْتلٌ
إلى كلِّ مَنْ ضُمَّت عليه الأباطحُ

وظنِّى به أن سوف يُبْعث صادقا
كما أُرسِل العَبْدان هودٌ وصالحُ

وموسى وإبراهيم حتى يُرَى لهُ
بهاءٌ ومنشورٌ من الذّكر واضحُ

---

(١) ليست في ابن هشام، لأن ابن هشام أثبت رواية زياد البكائي.

(٢) الاكتفا: فتاك

(٣) الصحاصح: جمع صحصح وهي الأرض المستوية.

(٤) أي بطيئات مثقلات الخطو.

ويَتبَعه حيًا لؤيٍ وغالبٍ
شبابهم والأشيبون الجحَاجحُ
فإنْ أبْق حتى يُدْرك الناس دهرُه
فإنى به مستبشر الود فارحُ
وإلا فإني يا خديجةُ فاعلمي
عن أرضك في الأرض العريضة سائحُ

وزاد الأموي:

فمتَّبعٌ دينَ الذي أسَّ البِنَا
وكان له فضلٌ على الناس راجحُ
وأسَّ بُنياناً بمكة ثابتاً
تلألأُ فيه بالظلام المصابحُ
مثاباً لأفْناءِ القبائل كلّها
تَخُبُّ إليه اليَعْملاتُ الطَّلائح[1]
حراجيج[2] أمثالُ القِداح من السُّرَى
يُعلَّق في أرساغهن السرائح

(١) اليعملات: جمع يعمله. وهي الناقة النجيبة، والطلائح: المتعبات.
(٢) الحراجيج: الطوال.

ومن شعره فما أورده أبو القاسم الشهيلي في روضه:

لقد نصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم
أنا النذيرُ فلا يَغرركمُ أحدُ
لا تَعبُدُنَّ إلهاً غيرَ خالقِكم
فإنْ دَعَوْكم فقولوا بيْننا حدَدُ[١]
سُبحان ذي العرش سبحاناً يدوم له
وقبْلَنا سبَّحَ الجوديُّ والجَمدُ
مسخَّرٌ كلُّ ما تحت السماءِ له
لا ينبغي أن يُناوِي مُلْكَه أحدُ
لا شيء مما ترى تبْقى بشاشته
يبْقى الإله ويُودِي المالُ والولدُ
لم تُغْنِ عن هُرْمزٍ يوماً خزائنه
والخُلْدَ قد حاولت عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سليمانُ إذ تجرى الرياحُ به
والجن والإنس فيما بينها مَرَدُ
أين الملوك التي كانت لعزتها
من كل أوبٍ إليها وافدٌ يفِدُ
حوضٌ هُنالك مورودٌ بل كذبٍ
لا بُدَّ مِنْ وِرْدِه يوماً كما ورَدُوا

---

(١) الحدد: الخصومة.

ثم قال: هكذا نسبه أبو الفرج إلى ورقة. قال: وفيه أبيات تنسب إلى أميّة ابن أبي الصلت[١].

تم بعونه تعالى

الشيخ ماجد ناصر الزبيدي

---

(١) السيرة النبوية، لابن كثير، ج١، ص٢٦٧-٢٧٠.

مصادر البحث

١- القرآن الكريم.

٢- عمار بن ياسر حليف مخزوم لصدر الدين شرف الدين.

٣- مثلهُن الأعلى السيدة خديجة، الشيخ عبد الله العلايلي.

٤- الكشّاف.

٥- الصحاح.

٦- لسان العرب.

٧- تفسير الطبري.

٨- سيرة الأئمة الاثني عشر لهاشم معروف الحسني.

٩- السيرة النبوية لابن كثير.

١٠- أخبار مكة للأزرقي.

١١- المنجد.

١٢- تاريخ الطبري.

١٣- السيرة النبوية، لابن هشام.

١٤- سيرة أعلام النبلاء للذهبي.

١٥- الطبقات الكبرى، لابن سعد.

١٦- السيرة الحلبية.

١٧- مناقب آل أبي طالب.

١٨- الاستغاثة.

١٩- الاوائل.

٢٠- الإصابة.

٢١- أسد الغابة.

٢٢- نسب قريش لمصعب الزبيري.

٢٣- قاموس الرجال.

٢٤- صفين للمنتقدي.

٢٥- الاستيعاب، (بهامش الإصابة).

٢٦- بنات النبي أم ربائبة، للسيد جعفر مرتضى العاملي.

٢٧- البدء والتاريخ.

٢٨- تاريخ الخميس.

٢٩- البداية والنهاية.

٣٠- الدر المنثور.

٣١- تاريخ أهل البيت.

٣٢- مختصر تاريخ دمشق.

٣٣- دلائل النبوة للبيهقي.

٣٤- ذخائر العقبى.

٣٥- نهاية الأرب.

٣٦- المصنف، للصنعاني.

٣٧- كتاب النبوة، للشيخ محمد حسن آل ياسين.

٣٨- رجال الطوسي.

٣٩- تهذيب التهذيب.

٤٠- بحار الأنوار.

٤١- الكافي.

٤٢- المصباح الأكبر.

٤٣- دلائل الإمامة.

٤٤- الروض الأنف.

٤٥- أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، للأستاذ عبد المنعم الهاشمي.

٤٦- شرح المواهب.

٤٧- الزهراء بنت محمد.

٤٨- تراجم سيدات النبوة لبنت الشاطي.

٤٩- منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل.

٥٠- صحيح بخاري.

٥١- فتح الباري.

٥٢- سبل الهدى والرشاد.

٥٣- خصائص أمير المؤمنين(ع).

٥٤- وفاة الزهراء(ع)، للمقرم.

٥٥- تذكرة الخواص.

٥٦- فقه السيرة للغزالي.

٥٧- في رحاب محمد وآله.

٥٨- الاستيعاب، لابن عبد البر.

٥٩- التوحيد للبخاري.

٦٠- المستدرك على الصحيحين.

٦١- الفصول المهمة.

٦٢- أزواج النبي، للصالحي.فهرس الآيات

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأبيات الشعرية

بأن ابن عبد الله أحمد مُرسلٌ	إلى كلّ من ضُمّت عليه الأباطحُ	١٨٧
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً	والموت أكرم نزّال على الحرم	٢٣
تزوجت من خير البرّية كلها	ومَن ذا الذي في الناس مثلُ محمد	١٢٠
حراجيج أمثالُ القداح من السُّرى	يُعلَّق في أرساغهن السرائح	١٨٨
حوضٌ هُنالك مورودٌ بلا كذبٍ	لا بُدَّ مِنْ وِرْدِهِ يوماً كما ورَدُوا	١٨٩
رفعتُ له بذي طلاّل كفّي	فخر يميدُ كالجذع الصَّريع	٣٣
سُبحان ذي العرش سبحاناً يدوم له	وقبْلنا سبَّح الجوديُّ والجمدُ	١٨٩
على سيد البطحاء وابن رئيسها	وسيدة النسوان أول من صلى	١٦١
فيلقى من يحاربه خساراً	ويلقى مَنْ يُسالمه فلُوجا	١٨٦
فياليتي إذا ما كان ذاكمْ	شهدتُ وكنت أوَّلهم وُلوجا	١٨٦
فإن يبقوا وابق تكن أمورٌ	يضجُّ الكافرون لها ضجيجا	١٨٦
فيخبرنا عن كل خيرٍ بعلْمه	وللحقّ أبواب لهن مفاتحُ	١٨٧
فإنْ أبق حتى يُدْرك الناس دهرُه	فإنى به مستبشر الود فارحُ	١٨٨
فمتّبعٌ دين الذين أسَّس إلينا	وكان له فضلٌ على الناس راجحُ	١٨٨
قد كانت الفعلة مني ضلة	هلا على غيري جعلت الزلة	
فسوف أعلو بالحسام القلة		٣٣
لقد نصرا في الله دين محمدٍ	على من بغى في الدين قد رعيا إلاّ	١٦١
لقد هدّ فقدك أهل الحفا	ظ فصلّى عليك وليّ النعم	١٦١
لجِجْتُ وكنتُ في الذّكرى لجُوجاً	لهمّ طالما بعث النَّشيجا	١٨٥
لفُرْقةِ قوم لا أحبُّ فراقَهم	كأنك عنهم بعد يومين نازحُ	١٨٧
لقد نصحتُ لأقوام وقلتُ لهم	أنا النذيرُ فلا يغرركم أحدٌ	١٨٩
لا تعبُدُونَّ إلهاً غير خالقكم	فإنْ دعوكم فقولوا بيننا حددُ	١٨٩
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويُودي المالُ والولدُ	١٨٩
لم تُغْنِ عن هُرْمزٍ يوماً خزائنه	والخُلدُ قد حاولت عادٌ فما خلدُوا	١٨٩

هنيئاً مريئاً يا خديجة قد جرت	لكِ الطيرُ فيما كان منكِ بأسعد	١٢٠
يا للرجال لمظلوم بضاعته	ببطن مكة نائي الحي والنفر	١٥

فهرس الكتاب

الفصل الخامس

الفصل السادس

